

سلسلة كتب
« سور الصين العظيم



تاريخ الصين

(الجزء الاول)





سلسلة كتب "سور الصين العظيم"

تاريخ الصين
(الجزء الاول)

مجلة "بناء الصين" بكين . ١٩٨٦

الفهرس

المجتمع البدائى

ان الصين هى احد مواطن الانسان الاول . ففى ازمنة مبكرة جدا كان يعيش فى هذه البقاع اسلاف الشعب الصينى الذين كشفت الحفريات عن آثارهم فى بكين ومقاطعات يوننان وشنشى وشانشى وقويتشو وخنان . وقد عثر فى مقاطعة يوننان على اسنان متحجرة منذ ١٧٠٠٠٠٠ سنة تعود لانسان يوانمو (١) وهو اقدم انسان فى الصين عرف حتى الآن . وجاء بعده انسان لانتيان المكتشف فى مقاطعة شنشى ويرجع الى ما قبل ٨٠٠٠٠٠ سنة ، فانسان بكين قبل ٤٠٠٠٠٠ — ٥٠٠٠٠٠ سنة ، وكان يقيم فى تل لونغقو قرب تشوكوديان جنوب غربى بكين . ومن منبوشات الادوات الحجرية المتواضعة التى استعملها انسان بكين ، ومخلفات النار واحافير الثدييات استكملنا صورة واضحة للانسان الاول تشكلت منها الصفحة الاولى من تاريخ الصين.

يحمل رأس انسان بكين شبها مع القرد — البشرى نجده فى خواصه التشريحية التالية : جبهة منخفضة مع عظمتين غليظتين متصلتين فوق عينيه ، انف افطس عريض ، فم ناتئ ، وجنتان بارزتان ، فضلا عن الجمجمة السميكة التى تصغر جمجمة الانسان الحديث . وثمة مع ذلك تطور اصاب اطرافه الاربعة نتيجة لاستخدامها فى العمل مكنه من التصرف بها حسب حاجاته رغم ان رجليه ظلتا غير تامتى الاستقامة . وقد جلب هذا التطور فى الاطراف الاربعة تطورا مماثلا على الرأس والدماغ . . وبهذه الخواص يتميز انسان بكين عن القرد البشرى .

تمكن انسان بكين من صنع الادوات البسيطة من الحجر والخشب ، مسجلا بذلك احد الفروق الاساسية بين الانسان والحيوان . وتمثل هذه الادوات ، التى استعملت للصيد والجنى ، الحقبة المبكرة من الدهر الحجرى القديم . واقتبس النار من الغابات المحترقة بفعل الصواعق وحفظها طوال السنة وقد استخدمها للحصول على الطعام الناضج السهل الهضم الذى ساعد على تقوية بدنه ، كما عزز بها قدرته على تحدى الطبيعة باستخدامها للاضاءة والتدفئة وطرد الضوارى .

ولعدم كفاءة الادوات تعذر على انسان بكين ان يحصل منفردا على قوته فكان يعمل جماعيا . ولتأمين سلامته فقد عاش كذلك بشكل جماعي . وكان يخرج نهارا فى زمر ليجمع النباتات ويقتنص الحيوانات الصغيرة بالحجارة او العصى ، وتستهلك مكتسبات النهار من قبل المجموع . وكانت تسرح فى هذه البقعة التى تمتاز برطوبتها واعتدال مناخها قطعان الاوابد والضوارى كالحصان البرى والايل المرقط والغزال والكركدن والدب والذئب والنمر ذى الاسنان السيفية . اما مهجعه ففى الكهوف الجبلية التى تحميها المشاعل الدائمة من غزو الوحوش . وفى اثناء العمل الجماعي صار بامكان انسان بكين ان يعبر عن مشاعره ويتبادل افكاره باصوات لغوية بسيطة بمساعدة الايماء .

المشترك العشائرى

تطور الانسان الاول فى النضال ضد الطبيعة فظهر بعد انسان بكين ، انسان مابا (قوانغدونغ) فى حوض نهر اللؤلؤ وانسان تشانغيانغ (هوبى) فى حوض اليانغتسى ، وانسان دينغتسون (شانشى) فى حوض النهر الاصفر .

وفيما قبل ١٧٠٠٠ سنة عاش مخلوق آخر يشبه الانسان الحديث من حيث الاساس سماه انثروبولوجيونا «انسان الكهف الاعلى» لانه اقام فى كهوف تقع فوق كهوف انسان بكين . ويؤشر هذا الكائن مرحلة تطور من الانسى المنتصب او الانسان — القرد (النسناس) الى الانسى المتعقل او الانسان الحديث . وكان لهذا الانسان من القدرات ما ليس لسابقه فقد مارس الحفر والنحت وخياطة الملابس من الجلود بالابر العظمية والتقشير والسلخ . وصار يأكل ، علاوة على النباتات والحيوانات البرية ، السمك وغيره من الاحياء المائية كما انه عرف كيف يستوقد النار (٢) .

بعد ان تطور النسناس الى الانسان تغير التنظيم الاجتماعي فتحولت القطعان البدائية التى تعيش بشكل عشوائى الى «المشترك العشائرى» القائم على رابطة الدم بين افراده . وكان الشكل الاول لهذا المشترك اموميا . وخلال الوف السنين ، شهدت الصين مشتركات عشيرة امومية شملت هيلونغجيانغ شمالا ، وشينجيانغ فى الشمال الغربى ، ويوننان والتبت فى الجنوب الغربى ، وتايوان جنوبا . وقد عثر عام ١٩٥٢ على طلل لقرية بانبوه (شنشى) فى حوض النهر

الاصفر ، يرجع الى ٦٠٠٠ — ٧٠٠٠ سنة ، يعرف بطلل عشيرة بانبوه . وفى عام ١٩٧٣ نبش عن اطلال اخرى فى قرية خمدو بمحافظة يوياو (تشجيانغ) فى حوض اليانغتسى ترجع الى «عشيرة خمدو» (٣) . وفى هذين الموقعين وقفنا على نموذجين كاملين للمشترك العشائرى يرجعان الى الدهر الحجرى الجديد .

فى عشيرة بانبوه التى شهدت ذروة المشترك العشائرى الامومى ، تبوأت المرأة مكانة قيادية فى الانتاج والحياة اليومية بحيث تحددت الانساب تبعا للام . وعلى يد هذه العشيرة بدأ استعمال الفأس والرفش والسكين الحجرى المصقول وكذلك الابرة والمخرز والصنارة والكلاب ، المعمولة من العظام والقرون . كما استعملت فى الصيد سهام ذات نصل من الحجر او العظام .

وفى ايامها بدأت الزراعة ، ربما على يد المرأة التى لفت نظرها نمو النبات من البذور المتساقطة على الارض فتعلمت كيف ينبت الزرع . وقام انسان بانبوه بتنظيف الارض من الاعشاب والاشجار بالنار ثم تمهيدها بالرفش الحجرى والمعزقة الخشبية ، وبذرها بالعصا الخشبية المدببة . ومن المحاصيل التى زرعت حينذاك الذرة (الصين اول بلد يزرع الذرة فى العالم) وقد استعملت فى حصادها السكاكين الحجرية والفخارية والخضروات للاكل والقتب للقماش . ومع تقدم وسائل الصيد كثرت عوائده فتوفر منه فائض للتربية . ومن اوائل الحيوانات التى بدىء بتربيتها الخنزير والكلب والبقر والغنم والدجاج . ورغم ان الزراعة وتربية الحيوان احتلت جزءا رئيسيا من الانتاج فمازال الصيد — البرى والمائى — يحتفظ بمكانة هامة .

وبدأ انسان بانبوه بانتاج الفخاريات واستعمالها اوعية للماء وغيره وللطبخ ، وظهرت على يديه اولى محاولات الزخرفة حيث وجدت على فخارياته صور لوجه الانسان وللاسماك والزهور .. واولى محاولات الكتابة متمثلة فى علامات كتابية من ٢٠ او ٣٠ نمطا وجدت مخطوطة على اوعية الفخار .

وفى مشترك بانبوه تحولت المعيشة من الكهوف الى البيوت التى بنيت على شكل اكواخ مستطيلة او مستديرة تضم ما بين ٤٠ او ٥٠ بيتا بلا نوافذ ، وحولها خندق بعرض ٦ امتار وعمق بنفس القدر لحمايتها من الضوارى ، وكانت ابوابها موجهة صوب الجنوب لتجنب ريح الشمال الباردة . ويشغل كل بيت حوالى عشرة امتار وفى وسط كل منطقة سكنية مبنى كبير مستطيل للنشاط

الجماعي . وقد وجدت خارج الخندق مقبرة تقع الى الشمال واتون فى الشرق . وتتشكل من كل هذه المعطيات ملامح قرية منظمة تندرج فى نفس طراز حضارة يانغشاو الحجرية .

فى خمدو ، كما فى بانبوه ، استعملت الادوات الزراعية من العظام والخشب والحجر للحراثة وزرع الرز الذى بدأت زراعته فى الصين قبل غيرها . وعاش اهل خمدو ، قبل ٧٠٠٠ سنة ، حياة مستقرة تعتمد على الزراعة وتربية الحيوان كالخنزير والكلب والجاموس وسكنوا فى بيوت من الخشب .

ان كلا من بانبوه وخمدو مشترك عشيرى ، فالاراضى والمساكن والمواشى ممتلكات عامة ، والعمل جماعى ، ويشارك الجميع فى ثماره بلا استثناء او حيف فى التوزيع . وكانت المساواة قاعدة عامة اذ لا وجود لفقير او غنى ، ورفيع او وضيع . ولم يعثر على أى فوارق فى الادوات الجنائزية يمكن ان تشير الى فوارق فى الحياة الاجتماعية .

وكان للعشيرة كبيرها الذى ينظم شئونها دون ان تكون له سلطة آمرة . وتحل المشاكل بالتشاور بين كل الافراد . . ولما نشأت القبيلة من انضمام العشائر المتجاورة لم يطرأ تغير على بنيتها الاجتماعية وظل كبير القبيلة ، شأن كبير العشيرة ، يتعين بالاختيار ، دون ان ينفصل عن العمل او يتمتع بامتياز .

العشيرة الابوية

مع تطور الزراعة ورعى المواشى ، اخذ الرجل القيادة من المرأة فى الانتاج والحياة اليومية فظهرت العشيرة الابوية التى تتحدد فيها الانساب حسب رابطة الدم مع الاب . ويعنى ذلك افول المجتمع البدائى وهو ما تدل عليه آثار اواسط حضارة داونكو واواخرها (٤) . وقد كشف عن هذه الحضارة عام ١٩٥٩ فى داونكو (شاندونغ) وهى ترجع الى ما قبل ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ سنة ، وتمتد ما بين شاندونغ وشمال جيانغسو .

فى عصر داونكو صار الانسان يزرع الاراضى المستصلحة بعد قطع الاشجار والدغل بادوات حجرية ويستعمل للحصاد سكينا من الحجر ومنجلا من العظام والاصداف . وتطورت رعاية الخنزير والغنم والقبر والدجاج فوفرت المزيد من مصادر اللحوم . ومع دخول الانتاج هذه المرحلة من تطوره

ظهرت صناعة يدوية تضم الفخاريات والحجريات و العظميات الى جانب صياغة ونحت اليشم والعاج . وبدأت بعض الاسر تتخصص فى واحدة او اكثر من هذه المهن . وفى اواخر هذا العصر نشأت الملكية الخاصة على حساب المساواة البدائية حيث خلقت زيادة الانتاج امكانات الاستيلاء على ثمار عمل الآخرين ؛ وطفق كبراء العشائر او القبائل يستفيدون من مراكزهم للاستئثار بالفوائض وكان فى مقدمة ما استأثروا به الحبوب والمواشى ثم امتلكوا ادوات الزينة واوعية الخمور وحليت نساؤهم بالاسورة وخواتم اليشم واستخدمن امشاط العاج ، وتميزوا فى الدفن فاحتوت قبورهم على الكثير من المواد الجنائزية كرأس الخنزير وفكه الاسفل وادوات الفخار . وقد نبش فى احد القبور الكبيرة عن ١١٧ مادة من بينها رفش وسوار من اليشم وثلاث قلائد من الرخام والفيروز و١٣ قدحا للخمر . هذا بينما اقتصرت مقتنيات معظم افراد العشيرة على لوازم الانتاج والفخاريات اليومية ، طبقا لما دلت عليه محتويات قبور الفقراء التى نبش عنها فى نفس الموقع .

تقودنا هذه التغيرات فى الوضع الاجتماعى لمجتمع العشيرة الى نشوء الطبقات والصراع الطبقى الذى اتسمت به الحقبة الاخيرة من حضارة داونكو ؛ ومنه الى ظهور الدولة ، وليدة الانقسام الطبقى . وقد انعكست هذه السيرورة فى خرافات قديمة ، منها حكاية هوانغ دى (الامبراطور الاصفر) الذى قيل انه شكل اتحادا قبائليا قبل اكثر من ٤٠٠٠ سنه ، تولى زعامته باختيار ديمقراطى ، كل من هوانغ دى ، وياو ، وشون ، ويوى على التوالى . وتبعا للخرافة ، كان ياو غنيا وانه زود شون ، المرشح لخلافته ، بالملابس والآلات الموسيقية وباعداد وفيرة من الماشية والاغنام . وكان لشون هرى فى بيته لتخزين الحبوب الزائدة كما كان يقايض ما لديه من البضائع مع العشائر الاخرى . وتقول الخرافة ان يوى ، آخر هؤلاء الحكام ، قد جاء من عائلة نبيلة ، وانه استخدم ما لديه من قوة لفرض ارادته على الآخرين . وبعد موته تولى ابنه تشى رئاسة الاتحاد ، وهذا اول خرق لمبدأ الاختيار الديمقراطى .

لقد صار الامر وراثيا . ويعزى الى تشى نفسه تأسيس اسرة شيا (٢١٠٠ — ١٦٠٠ ق . م) التى اعتبرت بداية الدولة فى الصين . وتحول كبراء العشائر الى قادة اغنياء ، ولتوسيع نفوذهم وزيادة ثرواتهم ساقوا افرادهم الى الحروب

واخذوا باسترقاق الاسرى بدلا من قتلهم ، بينما انحط بعض الفقراء الى عبيد .
وارغم المتسلطون عبيدهم على العمل المرهق وابتزوا كل ثمار كدهم .

هكذا ظهر المجتمع العبودى على اشلاء المجتمع البدائى فتفككت الملكية العامة والغيت المساواة بين الناس . لكن النظام العبودى وسع حجم الانتاج ورفع الانتاجية ، فهو بالتالى يمثل قفزة فى التقدم الاجتماعى مكنت المنتجين الرئيسيين وهم العبيد ، من خلق ثروات مادية وعلوم وثقافات لم يعرفها المجتمع البدائى .

المجتمع العبودى

اسر شيا وشانغ وتشو الغربية

اسرة شيا — اقدم دولة عبودية

اسرة شيا ، اولى الاسر المالكة فى تاريخ الصين ، تطورت فى القرن ٢١ ق . م من عشيرة شيا التى كانت تقيم على ضفاف النهر الاصفر ونهر لوهشوى غرب مقاطعة خنان ، وفى جنوب مقاطعة شانشى ، وامتد نفوذها الى ملتقى حدود مقاطعات خنان وخبى وشاندونغ بمحاذاة مجرى النهر الاصفر شرقا ، والى حدود مقاطعة هوبى جنوبا . ورغم انها لم تنفرد بهذه الاقاليم فان نشاطها كان طاغيا على غيرها من العشائر .

استخدم الشياويون معازق الخشب وسكاكين الحجر ومناجل الصدف واستوعبوا خلال الانتاج الزراعى اهمية الرى واستخدموا بعض التقنيات البدائية لمكافحة الجفاف والفيضان . وظهر منهم من اشتهر بمهارته فى ترويض الفيضانات كالقائد شيايوى وهو احد ابطال الحكايات . وتمشيا مع زيادة ممارساتهم وخبراتهم فى الزراعة توافرت لديهم بعض المعارف الفلكية والتقويمية التى نظمت الاجيال اللاحقة على اساسها التقويم السنوى وسمته «تقويم شيا الصغير» . ولا يزال هذا التقويم مستعملا حتى اليوم تحت اسم «التقويم القمرى» او «تقويم شيا» .

باسرة شيا بدأ المجتمع العبودى فى بلادنا . والطبقتان الاساسيتان فى هذا المجتمع هما ملاك العبيد والعبيد ، وثمة الى جانبهما طبقة العامة المنحدرة من اعضاء المشترك العشائرى وهى تزاول الانتاج الزراعى والحرف اليدوية . ومن المعروف ان التناقض بين ملاك العبيد والعبيد هو التناقض الرئيسى فى المجتمع العبودى .

كان القائد الأعلى لملاك العبيد الارستقراطيين ملك شيا . ومن اجل حماية مصالح هذه الطبقة وقمع معارضة العبيد والعامة ظهرت الدولة ، ونظم ملك شيا مع الارستقراطيين اجهزتها القمعية ، الجيش ، والسجون ، وشرعوا القوانين الجنائية وبنوا الاسوار حول المدن . وقد امسك ملك شيا بسلطة الدولة العليا ، وفرض مع الارستقراطيين الديكتاتورية على العبيد والعامة .

ولم يتوقف الصراع الطبقى قط خلال اربعمئة سنة استغرقها حكم شيا ، فكان العبيد يهربون او يتمردون كلما سنحت لهم الفرصة . وكان آخر ملوك هذه الاسرة شيا جيه الذى استوى على العرش فى القرن ١٦ ق . م ، وقد شدد هذا الملك اضطهاد الشعب ونهبه وعاش مع الارستقراطيين غايات البذخ والترف مما سبب تدهور الانتاج وضعف الدولة . وقد جابه العبيد اضطهاد هذا الملك بالتسيب فى العمل الزراعى . وكانت عشيرة شانغ فى المجرى الاسفل للنهر الاصفر تتحين الفرص بهذه الدولة فانتفضت عليها بقيادة شانغ تانغ الذى قاد تجمعا من العشائر للهجوم على شيا جيه وانتصر عليه وتلاشت بذلك اسرة شيا .

اسرة شانغ

اسس شانغ تانغ اسرة شانغ بعد دحره لاسرة شيا . وقد اتخذت هذه الاسرة عدة عواصم قبل ان يستقر بان قنغ ، احد ملوكها ، فى مدينة ين شمال غربى آنيانغ بمقاطعة خنان . ولهذا السبب عرفت اسرة شانغ باسم اسرة ين ايضا فى تاريخ الصين . وكانت هذه الاسرة تحكم اقليما واسعا امتد فى عصرها الذهبى الى البحر شرقا وغرب مقاطعة شنشي غربا ، كما اتصل بمقاطعة لياونينغ فى الشمال الشرقى ، وتجاوز نهر اليانغتسى من الجنوب .

ان اسرة شيا ترجع الى عصور ما قبل التاريخ اذ لم يردنا عنها اى نص مكتوب وانما بدأت الكتابة من اسرة شانغ التى افتتحت العصور التاريخية للصين . وقد اكتشفت دروع السلحفاة وعظام الحيوانات التى استخدمت للكتابة عند اطلال مدينة ين فى اواخر عصر تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) ، وكشف التنقيب فيما بعد عن بقايا القصور والقبور والمساكن ومشاغل الحرف اليدوية . وتبلغ دروع السلاحف والعظام التى استخرجت من اطلال ين حوالى مئة الف قطعة زودتنا بتفاصيل وافية عن نشاطات ملوك شانغ وملامح المجتمع فى ذلك

العصر . ويطلق على هذه اللغة اسم « لغة العظام الكهنوتية » . وهى لغة متكاملة نسبيا وتعتبر كتابتها اساسا للمقاطع الصينية المعروفة اليوم .

عزز ملاك العبيد فى اسرة شانغ اجهزة الدولة العبودية بغية توطيد مصالحهم . وكانت المناصب السياسية والعسكرية توزع على الارستقراطيين من قبل الملك وهو القائد الاعلى للدولة ، وكان الجيش مكونا من القوات البرية اساسا وسلاحه البلطة والرمح والعربات التى تجرها الخيل . وكان ملاك العبيد مسئولين عن اجهزة القمع ويتولون اصدار القوانين الجنائية وتنظيم السجون .

حضارة شانغ

خلق العبيد فى اسرة شانغ الثروات الوافرة باعمالهم الشاقة ، فدفعوا التطور الاقتصادى والثقافى فى المجتمع العبودى . وكانت الزراعة هى القطاع الانتاجى الرئيسى ، وتشتمل المزروعات فى ذلك الوقت على الدخن والقمح والرز واشجار التوت والكتان . وكان العبيد يعملون جماعات فى اشق الاعمال معتمدين على ابسط الادوات فيحفرون الخنادق والقنوات ويسقون الحقول ويصرفون مياه الفيضان ، وغير ذلك من الاعمال المرهقة . وتذهب ثمار كدهم الى بيوت سادتهم الذين يبتزون كل ما تنتجه هذه الادوات البشرية المسلوبة الارادة .

وكان للثروة الحيوانية فى اسرة شانغ مكان مرموق وهى تتألف من الخنازير والبقر والغنم والخيل والكلاب . ويتولى العبيد تربية هذه الحيوانات لاسيادهم الذين كانوا يستهلكونها فى اغراضهم المعيشية وطقوسهم . وكانت الاخيرة تقترن بتبذير لا حدود له . وربما ذبح الملك ثلاثمئة بقرة فى قربان واحد لموتاه .

وتطورت الحرف اليدوية كالفخاريات والعظميات وصياغة اليشم ، وتقدمت اعمال البرونز . وقد استوعب العبيد النحاسون مهارات صهر البرونز وسبكه ، وكانوا يستخدمون لصهر النحاس والقصدير اتونا يسخن حتى الف درجة مئوية ثم يصبون مصهور البرونز فى قوالب فخارية نحتت عليها الخطوط والاشكال المطلوب ابرازها . ومن الادوات التى صنعوها من البرونز قدور ثلاثية الارجل تسمى « تينغ » واقداح ذات مقبض وفوهة جانبية تسمى « جيوه » والاسلحة كالبلطة والرمح ، وادوات الانتاج كالسكين والفأس . ويحسن ان نشير هنا الى اكتشاف سلاح من هذا العصر يدعى يويه يشبه البلطة لكنه اكبر

منها يصنع نصله من طرق حديد النيازك الساقطة على الارض . ويدل ذلك على ان الحديد كان معروفا منذ اسرة شانغ .

أدى تطور الانتاج الزراعى الى تقدم لاحق فى المعارف الفلكية والتقويمية . وقد عرف الشانغيون الشهر القمرى قياسا على منازل القمر من محاقه الى بدره ، وفرقوا بين الشهر الكبير ، ٣٠ يوما ، والشهر الصغير ، ٢٩ يوما ، وبين السنة البسيطة ، ١٢ شهرا ، والكبيسة ، ١٣ شهرا ، كما عرفوا بعض المجموعات النجومية ، ووردنا منهم اقدم سجل للكسوف والخسوف .

حياة العبيد ونضالهم

فى المجتمع العبودى لم يستول ملاك العبيد الارستقراطيون على وسائل الانتاج فحسب بل استحوذوا على العبيد ، الذين كانوا بمثابة « اداة ناطقة » . وكانوا يسمونهم بالنار فى جباههم لمنعهم من الاباق ويربطونهم من اعناقهم عند العمل . وكان يحق للسيد قتل عبده كما يقتل حيوانه ، او يقدمه قربانا للموتى بدلا من الماشية . وقد جاء فى سجلات « لغة العظام الكهنوتية » ان احد السادة قتل ٢٦٥٦ عبدا فى احدى المناسبات الطقوسية . ويدفن العبيد مع سيدهم بعد ان يقتلوا لهذا الغرض . وقد كشف فى قبر احد ملوك شانغ عن اربعمئة عبد قدموا قربانا له . وكان العبيد يجابهون هذا الاضطهاد البشع بالاهمال المقصود فى العمل وتخريب ادوات الانتاج والهرب كما قاموا بالعديد من الانتفاضات ، التى ضعضعت حكم هذه الاسرة وحرمته طعم الاستقرار .

اسرة تشو الغربية ـــ دولة عبودية قوية

فى اواخر عصر شانغ استطاعت قومية دونغيى ، احدى الاقليات القومية التى كانت تقيم بين نهرى اليانغتسى وهوايخه فى الجنوب الشرقى ، الامتداد الى السهول الوسطى . فاشتعلت الحرب بينها وبين اسرة شانغ . ولكن الحرب انتهت بهزيمة قومية دونغيى فى عهد شانغ تشو ، آخر ملوك شانغ ، وكانت هذه الحادثة ايذانا بامتداد حضارة السهول الوسطى الى جنوب الصين الشرقى المتخلف ، مما يعنى مساهمة كبيرة فى التطور التاريخى للصين . لكن شانغ تشو كان من الجهة الاخرى طاغية شديد الوطأة على العبيد والعامة ، وقد دفع بسياسة الابتزاز

والنهب الى مداها الاقصى ولم يكن يعنيه من السلطة الا الاستكثار من بناء القصور ووسائل اللهو . ولمجابهة استياء الشعب سن قانونا دمويا للعقوبات . وهو مبتكر «عقوبة باولاو» التي تتم بوضع قنطرة نحاسية على فحم متقد ، ثم يضطر «المتهم» الى العبور عليها حافيا ، واذ يشعر بحرارة النحاس يحاول التخلص فلا يجد مفرا غير القفز من القنطرة الى حيث تتلقفه النار فتقضى عليه .

وكانت فى احواض نهرى جينغشوى وويشوى دويلة عبودية اخرى هى تشو التي اسمها تشو ون وانغ ، وهيأ لها اسباب التطور السياسى والعسكرى فتعاظمت قوتها يوما بعد يوم . وفى عهد خلفه تشو وو وانغ بلغت هذه الدويلة قوة مكنتها من مهاجمة دولة شانغ فى حوالى القرن ١١ ق . م . وكان تشو وو وانغ يقود جيوشا مؤلفة من عشائر مختلفة تقيم فى غرب الصين وجنوبها .ولما كان شانغ تشو قد ارسل جيشه لمقاتلة قومية دونغيى وبقى مرابطا هناك فقد اضطر لتجنيد العبيد وسوقهم لملاقاة جيوش دويلة تشو . والتقى الجمعان فى ضاحية مويه القريبة من العاصمة ، لكن العبيد الذين امتلأوا حقدا على طاغية شانغ امتنعوا عن القتال ومكنوا الجيش المهاجم من دخول العاصمة . وقد انتحر شانغ تشو حين بلغته انباء الهزيمة فتلاشت اسرة شانغ .

سميت اسرة تشو فى اوائل حكمها اسرة تشو الغربية ، وكانت عاصمتها فى هاو جينغ (جنوب غرب مدينة شيآن بمقاطعة شنشى) . وبغية توطيد سلطة هذه الدولة العبودية الجديدة اقام ملك تشو امارات فى انحاء البلاد ، وزعها على افراد عائلته ووزرائه الذين انعم عليهم بالقاب التشريف . وكان الامراء يحكمون نيابة عن الملك ويجبون له الاموال كما يمدونه بالجنود فى حالة الحرب . ومن هذه الامارات : لو ، تشي يان ، وى ، سونغ ، جين وغيرها . وكانت حدود هذه الدولة اوسع من سابقتها ، اذ كان لها فضلا عن الامارات المذكورة مناطق نفوذ واسعة فى انحاء متعددة من البلاد .

التطور الاقتصادى لاسرة تشو الغربية

تطور النظام العبودى سريعا فى هذا العصر . وكانت الاراضى ملكا للدولة أى للملك الذى يوزعها على الامراء والوزراء على شكل قطائع يستغلونها لحسابهم

ويتوارثونها ، ولكنهم لا يملكون الحق فى بيعها . ويتم التوزيع على سبيل المكافأة ، التى تتضمن علاوة على الاقطاعات اعدادا غفيرة من العبيد . ويقيم الملك والامراء وملاك العبيد فى مدن تحيطها حقول مترامية الاطراف تقسمها القنوات والطرق الى مربعات على شكل # وهو مقطع صينى يشير الى البئر (جينغ) ومنه اخذت الحقول اسم « حقول المربعات التسعة » . وترمز مساحة الحقل لمقدار المكافأة الملكية . وكان هذا النظام قد ظهر فى عصر شانغ ، فعممته اسرة تشو الغربية فى الوادى الاوسط والاسفل للنهر الاصفر . ويسخر العبيد لزراعة هذه الحقول ، والمحاصيل الرئيسية هى الرز والذرة والدخن والقمح والفول والتوت والكتان والبطيخ والفواكه .

وتقدمت الحرف اليدوية فى اسرة تشو الغربية عما كانت عليه فى اسرة شانغ ، وصارت اكثر تعقيدا . وكانت المشاغل تقوم على اكتاف العبيد الذين وقع عليهم عبء الانتاج فى الريف والمدينة . ونجد فى كتاب « الاغانى » وهو من اقدم دواوين الشعر الصينى وصفا مفصلا لاحوال العبيد فى تلك الدولة ، ومن ذلك قصيدة بعنوان « فى سبعة شهور » تحدثت عن عبيد منطقة جبل تشيشان بمقاطعة شنشى ، فقالت انهم يخرجون للصيد فى الشتاء وسط الرياح الثلجية ، فاذا صادوا الثعلب قدموا جلده الى الارستقراطيين واذا اصطادوا الخنازير اعطوهم اكبرها ، ويجمعون الجليد ويدخرونه كى يتمتع به الارستقراطيون فى الصيف . وفى الربيع يصلح الرجال الادوات الزراعية ويحرثون الحقول تحت اشراف الوكلاء ، اما النساء فينهمكن فى جمع اوراق التوت وتربية دود القز للسادة ، علاوة على طبخ الاطعمة وارسالها مع اولادهن الى الذين يعملون فى الحقول . وفى الخريف يمهد الرجال مكان البيادر ثم يحصدون المحاصيل . وفى آخر المطاف يأتى الارستقراطيون فيأخذون الحبوب ، اما العبيد فيدخرون النباتات البرية ليقتاتوا بها فى الشتاء . وعندما تنتهى الاشغال الزراعية يأخذون فى بناء القصور وترميمها لاسيادهم .

نهاية اسرة تشو الغربية

تكشف هذه القصيدة القاتمة عن سوء حال العبيد فى اسرة تشو . والواقع ان هؤلاء المنتجين الرئيسيين لم يكن لهم ما يستر اجسادهم لقاء الثروات الهائلة

التى كانوا يخلقونها . وكانت منزلتهم الاجتماعية ادنى من المواشى ، فكان كل خمسة عبيد يقايضون بحصان ورزمة من الحرير . ويعكس النص التالى شكوى العبيد المرة وحقدهم الطبقى العميق :

انتم ايها السادة لا تغرسون الرز ولا تحصدونه فباى حق تنقلونه الى منازلكم ؟ ولا تصيدون فى الجبال فباى حق تأخذون هذه الخنازير والارانب وتملأون بها بيوتكم ؟ ايها السادة .. انتم لا تستطيعون سوى الاكل .

على الجانب الآخر كانت حياة ملاك العبيد الارستقراطيين تتفسخ يوما بعد يوم . وكان الملك يشن المزيد من الحروب الابتزازية فتزيد تبعا لذلك اعباء العبيد والعامة . وفى عهد تشو لى وانغ الذى توج فى اوسط القرن التاسع ق . م تفاقم الاضطهاد وازداد وضع الشعب سوءا . فقد وضع يده على الغابات والانهار ومنع العامة من الصيد فيها ، وبث العيون فى انحاء البلاد للتجسس على الناس الذين صاروا لا يجرؤون على التحدث لبعضهم خوفا من بطشه . وكانت عاقبة هذا الطغيان انتفاضة مسلحة قامت بها العامة عام ٨٤١ ق . م فى العاصمة . وقد اقتحم المتمردون القصر الملكى باسلحتهم فهرب تشو لى وانغ وتسلم السلطة الوزيران تشو قونغ وتشاو قونغ ، حيث بدأ ما سمى فى تاريخ الصين عصر الحكم المشترك لتشو وتشاو . والسنة الاولى من هذا العصر هى بداية التاريخ الصينى المسجل ، اذ انها شهدت ظهور اول السجلات التاريخية الصينية .

انزلت «انتفاضة العامة» ضربة قاصمة باسرة تشو الغربية فاخذت فى التدهور وسادها الاضطراب . وضعفت سلطة الملك حتى استهان به الامراء ، واصبح سقوط الدولة وشيكا . وهو ما حدث حين هاجمت اقلية شيرونغ القومية هاو جينغ سنة ٧٧١ ق . م واحلتها معلنة زوال دولة تشو الغربية .

على ان حكم الاسرة لم يسقط ، فقد نقلت العاصمة فى السنة التالية الى مدينة لويانغ ، وكان ذلك فى عصر الملك تشو بينغ وانغ ، حيث بدأت دولة جديدة لنفس الاسرة التى اصبحت تعرف باسرة تشو الشرقية .

انحلال المجتمع العبودى
عصر " الربيع والخريف "

ينقسم عصر اسرة تشو الشرقية الى العصرين : « الربيع والخريف » و« الدويلات المتحاربة » . فى العصر الاول (٧٧٠ ق . م — ٤٧٦ ق . م) تدنت سلطة الملك حتى استهان به الامراء وتجرأوا على شن الحروب الابتزازية لاغتصاب الاراضى ونهب السكان والسيطرة على الامارات ، وكان الغالب يعقد اجتماعا يحضره الامراء للاعتراف بتفوقه . وظهر خلال هذا العصر من عرفوا باسم « المسيطرون الخمسة » وهم : تشى هوان قونغ امير تشى ، وسونغ شيانغ قوانغ امير سونغ وجين ون قونغ امير جين ، وتشين مو قونغ امير تشين ، وتشو تشوانغ وانغ امير تشو .

زوال نظام « المربعات التسعة »

وفى عصر « الربيع والخريف » توسع استخدام ادوات الحديد كالمعزقة والفأس وكذلك البقر فى الانتاج الزراعى مما رفع تقنية الحرث وحقق مزيدا من التطور للزراعة .

وقد سبق ذلك استصلاح الأرض البور بايدى العبيد المسخرين ، وكانت الاراضى المستصلحة تعتبر « حقولا خاصة » لملاك العبيد وكانت الى جانبها حقول « المربعات التسعة » التى تعتبر « الحقول العامة » . وفى عصر « الربيع والخريف » تضاعفت مساحة « الحقول الخاصة » بسبب تطور ادوات الحديد ، وكانت هذه الحقول ملكا خاصا لصاحبها الذى يستولى على كل منتوجها ، ولم يكن هناك نظام للضرائب حتى سنة ٥٩٤ ق . م حين قرر امير « لو » بسبب حاجته الى المال فرض الضريبة على الاراضى الزراعية سواء كانت حقولا خاصة او عامة . وكان هذا اول تشريع لضريبة الارض فى تاريخ الصين . وكان تنفيذ

هذه الشرعة يعني الاعتراف بملكية اصحاب « الحقول الخاصة » على الاراضى المستصلحة ، مما ادى بدوره الى تعاظم نفوذ الارستقراطيين . وقد تقاسمت ثلاث اسر ارستقراطية فى امارة لو ، هى جيسون ومنغسون وشو سون ، حقول « المربعات التسعة » — الحقول العامة ، واضافتها الى حقولها الخاصة ، كما حولت العبيد الذين كانوا ملكا للامارة الى ايد عاملة تحت تصرفها ، وكانت تستولى على الجزء الاعظم من محاصيل الحقول وتبقى للفلاحين جزءا يسيرا لقوتهم . وهكذا اصبحت هذه الاسر الارستقراطية اسرا اقطاعية مالكة للاراضى ، وتحول العبيد الذين كانوا يعملون فى حقول « المربعات التسعة » الى فلاحين . ويعنى ذلك تغيرا جذريا فى طرفى علاقة الانتاج ، حل بموجبه الاقطاعيون والفلاحون محل ملاك العبيد والعبيد .

جاء هذا التحول فى نهاية سلسلة عديدة من الاحداث والاحداث المضادة استمرت طوال عصر « الربيع والخريف » . وقد انهمك الامراء فى حروبهم الابتزازية وتفاقم شغفهم بالقصور ووسائل البذخ ولجأوا فى سبيل ذلك الى مضاعفة استغلال العبيد واعتصار المزيد من جهودهم . ففى امارة ليانغ مثلا ارغم العبيد على تشييد مجموعات من القصور والمبانى على مدى سنوات متتالية حتى اخذ الاعياء منهم كل مأخذ وكلت قواهم ، ثم اجبروا سنة ٦٤١ ق . م على حفر الخنادق حول القصور لحمايتها من غزو مزعوم . فلم يكن امام العبيد الا التمرد والهرب مسببين بذلك تخلخلا فى وضع الامارة تحينته امارة تشين فانقضت عليها وابتلعتها .

وفى امارة تشنغ اخذ العبيد يهربون تباعا . ثم تجمعوا عام ٥٢٢ ق . م فى مستنقعات « هوان فو » التى سيطروا عليها واخذوا باستصلاحها لانفسهم ، ونظموا فى اثناء ذلك قوة مسلحة لمقاومة الملاك السابقين . لكن الامراء لم يمهلوهم فقد جهزت لهم حملة عسكرية اطاحت بهم .

وفى اواخر هذا العصر تصاعدت نضالات العبيد فى شتى الامارات ، واخذوا بتنظيم حملات مسلحة ضد قصور وقلاع الامراء مستخدمين فى سبيل ذلك مختلف الوسائل كالتسميم والاغراق والاحراق ، حتى تزعزع حكم طبقة ملاك العبيد واصبحت حقولهم قاعا صفصفا لا تنبت غير الاعشاب البرية . وكان من نتائج ذلك زوال نظام المربعات التسعة التى كان زراعها من العبيد المسخرين وحلت محلها الاقطاعيات التى يعمل فيها الفلاحون . ومن هنا تفكك المجتمع العبودى

وآذن بالزوال ليحل محله مجتمع جديد يقوم على الاقطاع .

العلوم والتقنية

قطع الانتاج الاجتماعى شوطا كبيرا فى طريق التطور خلال عصر « الربيع والخريف » . وتطورت تبعا لذلك معارف جديدة لخصها اهل الفكر من تجارب وممارسات الكادحين خلال الانتاج . وتقدمت حينئذ فروع معرفية عديدة منها الرياضيات التى صارت علما مستقلا . وكان فى المدارس الارستقراطية مادة دراسية باسم « العدد » والمقصود بها الرياضيات . وظهر حينذاك جدول الضرب من خلال عمليات قياس الاراضى واحصاءات السكان والعربات والخيول . ويعتبر هذا الاختراع قفزة كبرى فى الحساب البدائى . وطرحت مسألة العلاقة بين الوتر والضلعين القائمين فى المثلث القائم الزاوية . وقد جاء فى كتاب « تشوبى سوان جينغ » احد المؤلفات الرياضية فى الصين القديمة ان محاسبا يدعى شانغ قاو اشار فى اوائل عصر اسرة تشو الغربية الى « الضلع الصغير برقم ٣ والقاعدة برقم ٤ والوتر برقم ٥ » وهى صيغة مبكرة لما سمى فيما بعد بنظرية فيثاغورس .

وحظى الفلك والتقويم بتطور مماثل حيث قدم فلكيو امارة لو مساهمة بارزة فى مضمار الرصد الذى شمل القمر والشمس والنجوم . وقد سجلوا ٣٧ كسوفا بين سنة ٧٠٢ و٤٨١ ق . م ثبتت صحة ٣٠ منها . وحددوا مواعيد الانقلابين الشتوى والصيفى . كما رصدوا فى سنة ٦١٣ ق . م مذنبا كان يمر بالنجم القطبى ، وهى اقدم اشارة الى مذنب هالى .

كتاب « الاغانى »

يضم هذا الكتاب ثلاثمئة قصيدة من اقدم مأثورات الادب الصينى كتب معظمها خلال عصر اسرة تشو الغربية وعصر « الربيع والخريف » وخصص منها فصل مستقل للشعر الشعبى بعنوان « قوه فن » . وكان للحكومة موظفون متخصصون بجمع الشعر الشعبى ، يطوفون البلاد فى فصل الربيع لتدوين الاشعار المتداولة فى اوساط الشعب . وتتحدث هذه الاشعار عن اوضاع الكادحين فى الانتاج والمعيشة حيث نستطيع ان نقرأ أو نلمس من خلال سطورها صور العبيد الذين يسقون بعرقهم حقولا مترامية الاطراف ، والنساء اللواتى يلملمن اوراق التوت من

المنحدرات والضفاف . او نطالع بين الحين والآخر صرخات احتجاج ضد ملاك العبيد الارستقراطيين الذين يمتصون دماء العبيد رجالا ونساء . وفيما يلى مقطع من قصيدة بعنوان «الجرذ الكبير» تجسد حقد العبيد فى امارة وى على الاستغلال الجنونى الذى يقوم به ملاك العبيد الارستقراطيون الذين صورتهم القصيدة على شكل جرذ كبير جشع . وتعبر القصيدة عن ارادة الهجرة من حقول الارستقراطيين نحو دنيا جديدة تنقذهم من احوالهم المزرية :

ايها الجرذ الكبير ، ايها الجرذ الكبير
لا تأكل حبوب ذرتى .
من ثلاث سنوات وانا اغذوك
ولكنك لم تشفق على مرة واحدة
وهكذا سارحل عنك
الى ارض سعيدة
ارض سعيدة ... ارض سعيدة
أستطيع فيها ان اعيش

وقصائد كتاب الاغانى على اصناف مختلفة منها المرائح الدينية والقصائد القصصية التى تروى بعض احداث التاريخ واشعار الولائم والصيد التى تصف متع الحكام وقصائد اجتماعية عامة تتحدث عن تدهور المجتمع واضطرابه . ويضم الكتاب قصائد واغانى عاطفية ووجدانية من النمط المتداول فى اوساط الشعب . وتتمتع الكثير من قصائد هذا الديوان الفخم بجزالة اللغة وجمال القافية وعفوية التعبير . كما تمتاز بواقعية منطلقاتها المستمدة من الحياة اليومية مما يعطيها مكانة رائدة فى مضمار الادب الواقعى .

فكرة لاو تسى

لاو تسى اسمه الحقيقى لى ار . ولد فى امارة تشو فى اواخر حقبة «الربيع والخريف» . كان مسؤولا عن تسجيل الاحداث التاريخية ثم امينا لمكتبة البلاط فى اسرة تشو . وينسب اليه كتاب «الاخلاق» . ونجد فى هذا الكتاب بعض بذور الفكر المادى . فقد ميز لاو تسى فى كل شئ طرفين متناقضين كالوجود واللاوجود ، الحياة والفناء ، والسمو والحقارة ، والاعلى والاسفل ،

القوة والضعف .. الخ . وقال ان كل طرف يتحول الى نقيضه ويتضمنه « الكارثة تتضمن السعادة فى ذاتها والسعادة مصدر كارثة خفية » . وكان لاو تسى حائرا امام تيار التحولات الاجتماعية الجارفة ، وقد دعا الى « السلبية » .

كونفوشيوس — مفكر وتربوى

كونفوشيوس (٥٥١ قَ . م — ٤٧٩ ق . م) ولد فى امارة لو ، وكان مسؤولا عن القضاء فى امارة لو . وهو مؤسس المدرسة الكونفوشية .

كان كونفوشيوس يهتم بالطقوس ، ويطلب الناس من الالتزام بالنظام المتمثل فى « ان يكون الملك ملكا والوزير وزيرا والاب ابا والابن ابنا » ، وان يكون الوزير مخلصا للملك والابن يطيع الاب . والفئة السفلى تخضع للفئة العليا .

كان كونفوشيوس يؤكد على « البر » . فقال ان « البر » هو « حب الناس » . ويطلب من الحكام ان يحبوا الشعب والا يفرطوا فى استغلاله لتخفيف التناقض الطبقى .

كان كونفوشيوس يؤمن بالقضاء والقدر ويرى ان امبراطور السماء يدبر كل شئ فى الوجود ، وحياة الناس وموتهم واموالهم ومنزلتهم الاجتماعية كلها بيده . وليس القدر السماوى الا اوامر هذا الامبراطور وهو يتجسد فى ارادة الحكام . ويجب على الناس ان يخضعوا لمشيئة القدر السماوى ومشيئة الحكام .

اهتم كونفوشيوس بالتعليم . ففى المجتمع العبودى كانت المؤسسات الحكومية تحتكر التعليم ولا يستطيع التعلم الا ابناء الارستقراطيين . فانشأ كونفوشيوس كتاتيب تقبل تلاميذ من الفئات المختلفة ، ففتح بذلك مجالا للدراسة خارج الهيمنة الرسمية . قيل ان طلاب كونفوشيوس قد وصلوا الى ٣٠٠٠ نسمة بينهم ٧٢ حواريا . وكان كونفوشيوس يتخذ مواضيع تدريس متنوعة حسب احوال الطلاب . وكان يطلب الى تلاميذه ان يستذكروا الدروس السابقة دائما . وكان يقول : « اكتسب معارف جديدة بعد استذكار الدروس السابقة » وكان ينصحهم باتباع اسلوب الدراسة الصحيح فيقول : « اذا عرفت قل عرفت وان لاتعرف قل لا اعرف » كما حثهم على ان يدمجوا الدراسة مع التفكير . وكان كونفوشيوس يحتقر العمل الانتاجى ويعارض ان يدرس طلابه فنون الزراعة وزراعة الخضروات ،

فهذا - فى رأيه - عمل « الحقراء » . وحرر كونفوشيوس فى شيخوخته كتب « الاغانى » و« التاريخ » و« حوليات الربيع والخريف » وغيرها . وقد لعبت هذه الكتب دورا ايجابيا فى الحفاظ على الثقافة القديمة . وقد جمعت احاديث كونفوشيوس فى كتاب اسمه « الحوار » . وفيما بعد اصلح الحكام فى المجتمع الاقطاعى افكار كونفوشيوس واستخدموها فاصبحت اداة روحية لحماية النظام الاقطاعى واستغلال الشعب .

المؤلفات العسكرية القديمة

سون وو ، الجنرال فى امارة وو فى اواخر عهد « الربيع والخريف » ، عسكرى ، كان يجيد تدريب الجنود وقيادة القتال ، وقد الف كتاب « سون تسى بينغ فا » بعد تلخيصه لتجارب الجيل السابق وتجاربه نفسه فى القتال . وهو احد اقدم واشهر الكتب العسكرية فى العالم . وقد ذكر فيه مبادىء فنية واستراتيجية بصورة مفصلة واهمية تركيز القوة لانتصار على العدو ، وكذلك اكد على ضرورة استقصاء احوال طرفى القتال قبل الحرب ، وهو القائل : « ان كنت على بينة من امر عدوك وامر نفسك فلن تنهزم فى اى معركة تخوضها . »

بداية المجتمع الاقطاعى

حقبة الدويلات المتحاربة

خلال الحروب الطويلة فى سبيل السيطرة فى حقبة « الربيع والخريف » (٧٧٠ ق . م — ٤٧٦ ق . م) ابتلعت الامارات الكبيرة الامارات الصغيرة ، ولم تبق حتى بداية حقبة « الدويلات المتحاربة » (٤٧٥ق . م — ٢٢١ق . م) الا الدويلات السبع المسماة « الكبريات السبع » وهى تشى ، تشو ، يان ، هان ، تشاو ، وى ، تشين . على ان الدويلات السبع لم تتوقف هى الأخرى عن الحروب من اجل اغتصاب مزيد من الاراضى والسكان بصرف النظر عن معاناة الشعب من الكوارث وطموحه الى توحيد البلاد .

بدأ المجتمع الاقطاعى فى الصين بحقبة « الدويلات المتحاربة » بعد تمهيد طويل فى حقبة « الربيع والخريف » التى شهدت انحلال نظام « المربعات التسعة » وحلول الملكية الاقطاعية للاراضى محل ملكية الدولة العبودية . واستحوذ الارستقراطيون على مساحة واسعة من الحقول كان من بينها الحقول العامة التى جولوها حقولا خاصة لهم ، بينما حصل القادة العسكريون على مساحات اخرى مكافأة من الملك لمآثرهم فى الحروب . وكانت الى جانب هؤلاء فئة التجار الاثرياء الذين استحوذوا على الاراضى بوسائلهم الخاصة . . وقد استثمرت هذه الاقطاعيات بتأجيرها للفلاحين . وهكذا تشكلت طبقة ملاك الاراضى على اشلاء سادة العبيد . ومع تعاظم نفوذها الاقتصادى يوما بعد يوم طالبت هذه الطبقة بشطب امتيازات ملاك العبيد الارستقراطيين والنظام القديم والاخذ بنظام سياسى ملائم لتطور الاقتصاد الاقطاعى تحكمه دكتاتورية طبقة الملاكين . وبتأثير هذه الطبقة شنت حملة اصلاحات فى شتى الدويلات خلال حقبة « الدويلات المتحاربة » بدأت من وى ، واخذت مداها الابعد فى تشين .

اصلاحات شانغ يانغ

كلف تشين شياو قونغ ، ملك تشين ، (٣٦٢ — ٣٣٨ق . م) شانغ يانغ (؟ — ٣٣٨ق . م) باعداد خطة للاصلاح سنة ٣٥٩ق . م . اعلنتها الحكومة بعد ذلك فى تشريع ينص على :

الغاء نظام « المربعات التسعة » وادماجها ببعضها بازالة الدروب وعلامات الحدود التى تفصل بينها .

الاعتراف بالملكية الخاصة للارض ، واجازة بيع الاراضى .

مكافأة القادة العسكريين ذوى المآثر فى الحروب ، والغاء امتيازات ملاك العبيد الارستقراطيين المتمثلة فى الرواتب التى تقرر لهم منذ الولادة ، وتوزيع المناصب عليهم اذا كبروا . وجعل الرواتب والمناصب حسب المآثر العسكرية بصرف النظر عن منشأ اصحابها .

اقامة نظام المحافظات ، وقد نصت هذه المادة على تأسيس ٣١ محافظة فى انحاء البلاد ، يعين الملك بنفسه محافظيها .

مكافأة الزراعة والغزل والنسيج حيث نص على اعفاء من ينتج حبوبا وقماشا اكثر من المحدد ، من السخرة .

ضبط وتحديد اعمال الحرفيين والتجار ، ومنع ترك الزراعة لمزاولة التجارة ، اى تحول المزارع الى تاجر .

وقبل اعلان هذا التشريع كان شانغ يانغ خائفا من رفض الشعب له فدبر الخطة التالية : وضع خشبة طولها عشرة امتار على البوابة الجنوبية للعاصمة والى جنبها بيان بمكافأة لمن ينقل الخشبة الى البوابة الشمالية . ولم يصدق الناس هذا الاعلان فلم يتقدم احد ، وعندها امر شانغ يانغ بزيادة المكافأة الى ٥ اضعاف ما كانت عليه ، فتقدم رجل ونقل الخشبة الى البوابة الشمالية . فوفى له شانغ يانغ بالمكافأة . وكان هذا التدبير يهدف الى اظهار عزمه الراسخ على تنفيذ قوانينه الجديدة .

مع تطبيق اصلاحات شانغ يانغ لفظ النظام العبودى فى تشين آخر انفاسه وتقدم النظام الاقطاعى نحو مواقع وطيدة فى المجتمع والدولة . وقد جعلت هذه الاصلاحات من دويلة تشين اقوى الدويلات السبع سياسيا واقتصاديا .

تطور اقتصاد المجتمع

وطد النظام الاقطاعي الجديد اقدامه بقوة فى الدويلات السبع خلال الاصلاحات التي استغرقت اكثر من مئة سنة . وتحرر الكادحون من قيد النظام العبودى ، الا انهم سرعان ما وقعوا فى اغلال الاقطاع . ومن الواضح مع ذلك ان حالة الفلاحين اصبحت افضل نسبيا من حالة العبيد فى ظل نظام الرق . وكان فى وسع الفلاحين العمل لانفسهم فى اوقات معينة وان يتصرفوا فى جزء من منتوجهم . وعلى سبيل المثال ، كان فلاحو تشين يستأجرون الاراضى من المالك لقاء نصف المنتوج ويبقى لهم النصف الآخر ، مما رفع من حماستهم للزراعة ، وفتح دروبا لتطور الانتاج الاجتماعى .

وقد عمت ادوات الحديد والحرث بالبقر احواض النهر الاصفر واليانغتسى فى حقبة « الدويلات المتحاربة » . واستخدم السماد العضوى من القمامات واسمدة الرماد والنباتات كما اتبعت طريقة الحراثة العميقة والبذور المحسنة والبذار المقيد بمواعيده .

واقيمت مشاريع الرى فى شتى الدويلات لتوسيع الحقول المروية والوقاية من الفيضانات والجفاف . ففى تشين انجز مشروع رى متعدد الاغراض سمى « دوجيانغيان » على حوض نهر مينجيانغ قرب تشنغدو من مقاطعة سيتشوان الحالية ، بادارة لى بينغ الذى كان حاكما للمنطقة . ولعب هذا المشروع دورا عظيما فى السيطرة على تيار النهر العارم ومقاومة الفيضانات ورى الحقول ، وفى تحويل سهول غرب سيتشوان الى حقول خضراء مترامية الاطراف . كما شقت قناة قرب شيانيانغ من مقاطعة شنشى الحالية ، طولها اكثر من ١٥٠ كيلومترا لسقى ٨٠٠٠٠ هكتار فى حوضى جينغشوى ويشوى ، وذلك بادارة تشنغ قوه احد خبراء الرى حينذاك . وقد اسفرت هذه المشاريع عن ارتفاع ملموس فى الانتاج الزراعى . وكانت العائلة المتكونة من خمسة افراد تتمكن من ادارة هكتارين ينتج الواحد منهما ١٢٠٠ كيلوغرام حبوب .

وحققت الحرف والصناعات ، لا سيما صهر الحديد ، مزيدا من التطور . وقد استخدم الحرفيون الفحم النباتى للوقود ، والمنفاخ لرفع حرارة الاتون ، وتمكنوا من صنع الفولاذ والحديد الزهر . وتأسست معامل كبيرة نسبيا يشتغل

فيها مئات الحرفيين . كما تشكلت مراكز لصهر الحديد فى الدويلات المختلفة اشهرها : مركز وان لدويلة تشو (مدينة نانيانغ بمقاطعة خنان) وهاندان ، لدويلة تشاو (مدينة هاندان بمقاطعة خبى) وتانغ شى ، دويلة الهان (فى شمال غربى مدينة شيبينغ بمقاطعة خنان) . وتطور انتاج الملح ، وكانت تشى ويان تستخلصانه من البحر اما وى وتشاو فمن البرك والغدران . وكان بعض التجار يملكون مصاهر الحديد والملاحات فى آن واحد فجنوا ارباحا هائلة وضعتهم فى مصاف الملوك .

وتقدم الفن الحرفى فانتجت منسوجات الحرير والكتان ، واوانى اللك المرصعة للاطعمة والادوات الموسيقية التى كشفت التنقيبات عن الكثير من بقاياها .

وازدهرت التجارة مع هذا التطور فى الانتاج وصار من الممكن لاسواق بالسهول الوسطى مثلا ان تتعامل بخيول الشمال وعاج الجنوب وسمك الشرق المملح وجلود الحيوان من الغرب . وكان السكان يتمركزون فى العواصم ومراكز المواصلات التى تطورت الى مدن كبيرة ذات طابع اقطاعى تمثلت فيها مظاهر الدولة الاقطاعية من الاجهزة الحكومية والقصور الفخمة والاسواق الكبيرة المنظمة . . .

تطور العلوم والتقنية

شهدت ميادين العلوم والتقنية منجزات هامة خلال هذه الحقبة منها فى الفلك حيث الف كل من قان ده من دويلة تشو وشى شن من وى كتابا فى الفلك وجمعا فيما بعد فى مجلد سمى «قان — شى شينغ جينغ» ومعناه : كتاب قان شى فى مسارات النجوم . وهو اقدم المؤلفات الفلكية فى العالم . وقد سجلت فيه اسماء ثمانمئة نجم بينها ١٢٠ تم تحديد مواقعها ، ورصدت حركات المشترى والمريخ وزحل والزهرة وعطارد وحددت قوانين بزوغها وافولها . كما احتوى المجلد على معطيات تقويمية شملت تقسيم السنة بحسب الفصول واجزائها كالانقلابات (البدايات) الفصلية ومنتصفات الفصول ، مع ما يلحق ذلك من نباتات وطيور موسمية . وأخذ الفلاحون يرتبون اعمالهم الزراعية حسب هذه المواعيد .

وفى الطب تنوعت طرق العلاج فظهرت اقسام الطب الباطنى والجراحى

والنسائى وطب الاطفال . . وتعددت اشكال الادوية فظهرت اللصقات والاشربة والخمر الطبى . ومن اشهر اطباء تلك الحقبة بيان تشيويه (القرن الخامس ق . م) وهو طبيب شعبى كان يتجول بين الدويلات ليقدم الخدمات الطبية للشعب ، وقد استعمل اربع وسائل للتشخيص : النظر (تأمل لون الوجه) ، التسمع ، توجيه الاسئلة (سؤال المريض عما يشكوه) وجس النبض . وهى الوسائل التى شاعت فى الطب الصينى التقليدى فيما بعد . اما العلاج فاستخدم فيه بيان تشيويه الوخز بابر الحجر والمعدن والاشربة والتدليك والكى .

وتقدمت العمارة ، واصبحت اسوار المدن والقصور والمنشآت الاخرى اكثر ارتفاعا ومتانة وجمالا . ومن معماريى هذه الحقبة لو بان الذى ولد بدويلة لو لاسلاف توارثوا النجارة . وقد اشتغل منذ طفولته فى مواقع البناء مع اهله فتكدست لديه خبرات ومهارات وفيرة . وتنسب اليه بعض الاختراعات الهامة كالمنشار والمسحاج والمسطرة .

ومن عسكريى هذه الحقبة سون بينغ وكان مستشار التان جى الجنرال فى دويلة تشى . وقد الف كتابا على غرار كتاب سون وو بعنوان «سون بينن بينغ فا» وصلتنا منه فقرات منقوشة على شرائح خيزران استخرجت عام ١٩٧٢ من قبور اسرة الهان الغربية فى وادى جبل ينتشيويه (محافظة لينيى — مقاطعة شاندونغ) . وسون بينغ هو صاحب الخدعة المشهورة فى تاريخ العسكرية الصينية باسم «محاصرة وى لانقاذ تشاو» .

مباراة " المدارس المئة "

فى خضم التحولات الكبرى التى شهدها تاريخ الصين فى هذا العصر طرح الكادحون وملاك الاراضى الناشئون وملاك العبيد المحتضرون آراءهم المختلفة انطلاقا من مصالحهم الطبقية المتفاوتة . ومن خلال هذه الطروحات تموجت حركة الفكر وتصاعدت الى مستوى لا مثيل له فى السابق ، متمخضة عن ظهور «المدارس المئة» فى الفلسفة وفى مقدمتها الطاوية والكونفوشية والموهية والشرائعية . وقد خاضت هذه المدارس صراعا عنيفا فيما بينها فظهر العديد من الفلاسفة والعديد من المؤلفات للعرض والدفاع والنقد . وفيما يلى لمحة عن بعض هذه المدارس :

الطاوية : من اقطاب الطاويين تشوانغ تسى من حقبة الدويلات المتحاربة

— دويلة سونغ . وينسب اليه كتاب « تشوانغ تسى » . وهو اكثر سلبية من لاو تسى ، كان يرى ان « عدم الفائدة » افضل من « الفائدة » .

الموهية : مؤسسها موه تسى الذى ولد فى عائلة حرفى فى اوائل الدويلات المتحاربة وكان يؤيد « التحاب » ، وقد وجه نقدا شديدا لجرائم قتل العبيد لدفنهم مع اسيادهم الموتى . وكان يؤيد انتخاب عناصر كفوءة للادارة على المستويات المختلفة ، ويعارض الحصول على الثراء والمناصب بالوراثة . وكان الموهيون يعيشون حياة متقشفة ، يلبسون ملابس قصيرة واحذية قشية ويتناولون اطعمة بسيطة وهم كدودون محبون للعمل .

منشيوس : مثل المدرسة الكونفوشية فى اواسط حقبة « الدويلات المتحاربة » ، ولد فى دويلة تسو (جنوب محافظة تسو الحالية بمقاطعة شاندونغ ،) واسمه الاصلى كه . وكان يبشر بافكار استغلال واضطهاد الطبقة الحاكمة الكادحين قائلا : ان الذين يعملون بعقولهم هم الحكام والذين يعملون بايديهم هم المحكومون ، الحاكمون هم المسئولون عن تقسيم الارزاق على المحكومين » . وطرح منشيوس فكرة « ان الشعب هو الاهم ثم الدولة ثم الملك . »

شيون تسى : ولد فى دويلة تشاو اواخر حقبة الدويلات المتحاربة وزاول التعليم فى دويلة تشى وعاش بعض الوقت فى تشين ، ثم استقر فى شيخوخته فى تشو حيث عكف على التأليف . ومن كتبه « شيون تسى » الذى يحمل اسمه . ويعتبر شيون تسى ماديا بقدرما يتعلق بفهم الطبيعة فهو يرى ان النيازك والمذنبات والعواصف والمطر واختلاف الفصول تغيرات طبيعية تجرى وفق قوانين معينة ، وان البشر قادرون على قهر الطبيعة ، ويجب عليهم ان يستغلوا قواهم لهذا الغرض .

هان فيى تسى : واحد كبار الشرائعيين ، ولد فى عائلة ارستقراطية من دويلة الهان فى اواخر حقبة الدويلات المتحاربة . كان يرى ان التاريخ يتقدم بلا توقف ، وان العصر الحاضر افضل من العصرين القديم والاوسط . ودعا من هنا الى عدم التقيد بالتقاليد العتيقة . وكان يؤيد اقامة دولة اقطاعية مركزية واحلال امراء اقطاعيين يعينهم الملك على كل المستويات محل ملاك العبيد الارستقراطيين ذوى الامتيازات الموروثة . على ان يمسك الملك بسلطة الدولة العليا بنفسه ، مع اختيار الوزراء والقادة العسكريين من بين الذين صمدوا فى

اختبارات الممارسة ، وترفيعهم بالتدريج بامر منه . وقد اكد على تقوية الحكم بالتشريع ، لا سيما التشريع الجنائى ، الذى يجب اعلانه وتعميمه فى انحاء البلاد . وكان لآرائه تأثير مباشر على الامبراطور تشين شى هوانغ (٢٥٩ ق . م – ٢١٠ ق . م) ويمكن اعتبار الاجراءات السياسية التى نفذت فى دولة تشين بعد توحيدها للصين تطبيقا صارما لهذه الآراء .

شاعر عظيم

من رجال هذه الحقبة تشيوى يوان (حوالى ٣٤٠ ق . م – ٢٧٨ ق . م) وهو من ارستقراطيى دويلة تشو المتداعية ، كان يطمح الى اصلاح الدولة لكنه جوبه بمقاومة النبلاء الذين اغروا به الملك فابعده عن العاصمة حيث عاش منفيا لمدة طويلة . وقد ساعده وعيه الاجتماعى على معرفة واقع الشعب فتعاطف مع قضاياه وبادله السراء والضراء . ويعتبر تشيوى يوان من كبار شعرائنا القدامى وهو مبتكر نمط جديد من الشعر كتبه بلهجة تشو واستمده من اغانيها الشعبية . ومن اهم اعماله قصيدة طويلة بعنوان « لى ساو » كتبها فى منفاه وتتألف من ٣٧٠ بيتا عبر فيها عن قلقه على وطنه وحنينه اليه وضمنها نقدا للتقاليد . وتتمتع القصيدة بلغة جزلة وخيال خصب يعكسان شاعريته المتفردة .

الفنون

قطعت اعمال الفنون شوطا كبيرا فى طريق التطور فى حقبة « الدويلات المتحاربة » ، وتطورت زخارف الادوات البرونزية من خطوط الى رسوم . وقد اكتشف ابريق نحاسى فى مدينة تشنغدو بمقاطعة سيتشوان سنة ١٩٦٥ ، نحتت عليه رسوم مأدبة وقطف اوراق التوت واطلاق السهام والصيد والهجوم على مدينة والقتال البرى والحرب المائية . وكذلك تطورت الموسيقى ووصلت الى مستوى عال . وقد اكتشفت مجموعة كاملة من اجراس نحاسية من ٦٤ قطعة يمكن العزف عليها الحانا قديمة وجديدة . وهى تعتبر تحفة نادرة من الفنون الثقافية القديمة .

اسرة تشين ـــ اول دولة اقطاعية موحدة

خلال اكثر من مئة سنة منذ اصلاحات شانغ يانغ طورت دويلة تشين قواها الانتاجية وعززت قدراتها العسكرية فاصبح نفوذها يتعاظم يوما بعد يوم . وقد استطاعت ابتلاع دويلات هان ، وى ، تشو ، تشاو فى اواخر حقبة « الدويلات المتحاربة » واستولت على مساحة واسعة من الاراضى ، منتهية عام ٢٥٦ ق . م الى الغاء اسرة تشو الشرقية التى لم يكن لها حينذاك غير وجود اسمى .

بدأ ينغ تشنغ ، ملك تشين ، (٢٥٩ ق . م — ٢١٠ ق . م) الذى استولى على العرش سنة ٢٤٦ ق . م ، حكمه بشن حروب ابتزازية واسعة النطاق افضت خلال عشر سنوات من ٢٣٠ ق . م الى ٢٢١ ق . م الى ابتلاع الدويلتين الباقيتين : يان وتشى بعد الاجهاز على الدويلات الاربع المذكورة . وهكذا توحدت الصين للمرة الاولى وظهرت اسرة تشين ؛ اول دولة اقطاعية موحدة متعددة القوميات فى تاريخ البلاد . وقد جاءت هذه الخطوة فى مسارها التاريخى متجاوبة مع استقرار الحياة وتطور الانتاج الاجتماعى ودفع وتعزيز التبادل الاقتصادى والحضارى بين الاجزاء المختلفة للصين وتحقيق الرغبات المشتركة لشعوب سائر القوميات .

الى جانب ذلك ، قامت دولة تشين بتوحيد مناطق سواحل الجنوب الشرقى وقوانغدونغ وقوانغشى . وكانت تقيم فى هذه المناطق قومية يويه ، احدى الاقليات القومية العريقة التى كانت تتناثر على سواحل الجنوب الشرقى وحوض نهر اللؤلؤ ، وتعيش على الزراعة وصيد السمك . وقد جرى التوحيد بالقوة حيث ارسلت حكومة تشين خمسمئة الف نسمة سنة ٢١٤ ق . م ، الى هذه المناطق للعيش مع الاهالى المحليين ، وضمها الى الدولة . ثم قامت بتنظيمها اداريا ونقلت اليها

ادوات الحديد الزراعية لاول مرة حيث تطورت زراعتها وتعلم ابناؤها مهارات جديدة فى هذا المجال .

اجراءات تشين شى هوانغ لتوطيد الوحدة

استحدث ينغ تشنغ بعد سحقه للدويلات الست لقب امبراطور وسمى نفسه « تشين شى هوانغ » – الامبراطور الاول – منطلقا من الاعتقاد ان حكم تشين الاقطاعى سيستمر الى الابد .

امسك تشين شى هوانغ السلطات السياسية والاقتصادية والعسكرية بيده . وكانت الحكومة المركزية تتألف من موظفين كبار اطلقت عليهم اسماء مخصوصة هم : تشنغشيانغ ، مسؤول عن مساعدة الامبراطور على ادارة شؤون الدولة ، ويويشيدافو ، مسؤول عن معالجة الوثائق المهمة ومراقبة الموظفين ، وتايوى ، مسؤول عن الشؤون العسكرية ، وتينغيوى مسئول عن شؤون القضاء والسجون . كان الامبراطور يعينهم ويعزلهم بنفسه .

واوجد الامبراطور الاول نظام المقاطعات والمحافظات – الهيئات الادارية المحلية – فقسم البلاد الى ٣٦ مقاطعة ، اصبحت فيما بعد ٤٠ مقاطعة تشتمل كل واحدة على عدة محافظات . ويعين الامبراطور ويعزل بنفسه ولاة المقاطعات والمحافظين الذين تولوا جباية الضرائب وتنفيذ اعمال التجنيد والسخرة . وقد لعب هذا النظام ، نظام السلطة المركزية ، الذى اقامته اسرة تشين دورا ايجابيا فى توحيد الصين وتنظيم تطورها الاقتصادى من خلال توطيد وحدة الدولة الاقطاعية الاولى .

وعزز الامبراطور تشين شى هوانغ الملكية الاقطاعية للاراضى فى انحاء البلاد معتمدا على قوة السلطة حين اصدر تشريعا الزم كلا من الملاكين والفلاحين بتسجيل ما بحوزتهم من الاراضى ودفع الضرائب حسب المساحة المسجلة كوسيلة لاكتساب الملكية اساسها الشرعى .

وتم توحيد النقد والمقاييس والمكاييل والموازين وتحديد عياراتها على نطاق البلاد . وقد شاع شكل عملة تشين المستديرة ذات الثقب المربع فى الوسط فى نقود الاسر اللاحقة . كما امر تشين شى هوانغ بتوحيد الكتابة على اساس خط « شياو تشوان » المبسط . وقامت حكومة تشين فى نفس الوقت بشق الطرق

الواسعة المؤدية الى انحاء البلاد من العاصمة شيانيانغ بمقاطعة شنشى ، كما شقت القنوات وطورت المواصلات المائية معززة بذلك التبادلات الاقتصادية والثقافية بين القوميات والمناطق وموطدة وحدة دولتها الاقطاعية .

توحيد الكتابة

اسماء الدويلات	تشين	تشى	تشو	هان تشاو وى	يان
المقاطع المختلفة لكلمة « حصان » قبل التوحيد					



كلمة « حصان » بخط « شياو تشوان » بعد التوحيد

تعرضت التجديدات التى اتخذتها حكومة تشين ، لا سيما نظام المقاطعات والمحافظات ، لمعارضة الكونفوشيين الذين استخدموا الكتب القديمة للتنديد باجراءات الحكومة . وخوفا من تأثير هذه المعارضة على مستقبل الدولة الاقطاعية شن لى سى ، الوزير الاكبر ، (؟ — ٢٠٨ق . م) حملة ضد الكونفوشيين اذت الى احراق جميع السجلات التاريخية والكتب المنتشرة فى اوساط الشعب ومؤلفات « المدارس المئة » باستثناء السجلات التاريخية لدويلة تشين . وقد جرى ذلك باقتراح من الوزير وموافقة الامبراطور الاول ، الذى امر فى السنة التالية باعتقال اكثر من ٤٠٠ كونفوشى ودفنهم احياء .

سور الصين العظيم

انتهزت اقلية شيونغنو القومية التى كانت تقيم فى الهضبة المنغولية بشمال البلاد سنى الصراع الدموى بين الدويلات السبع فعززت قوتها واحتلت سهول

المجتمع البدائى

تمثال رأس لامرأة ــ انسان بكين



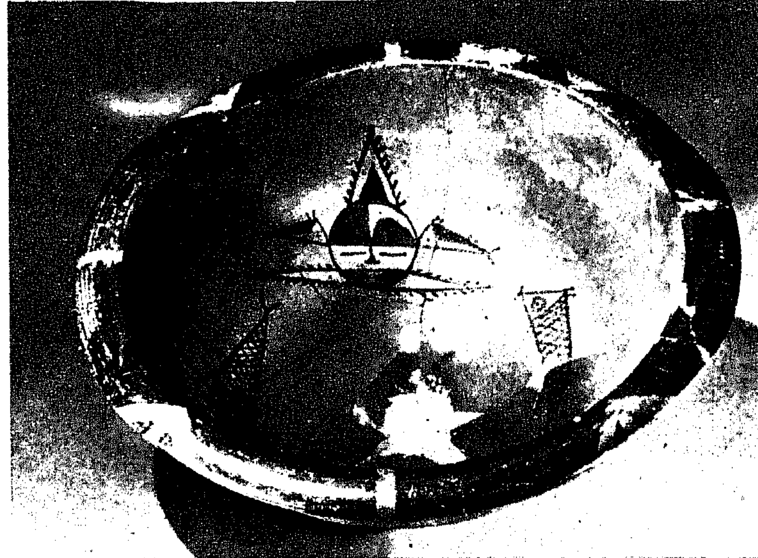
جبل لونغقو فى تشوكود يان ــ اكتشف فيه انسان بكين



انسان بكين يجمع الطعام



مخلفات النار فى احد كهوف تشوكوديان قرب بكين . من الرماد (اليسار) والعظام المحروقة (الوسط) والاحجار



طشت فخارى ملون عليه تصاميم لوجه الانسان والسمك

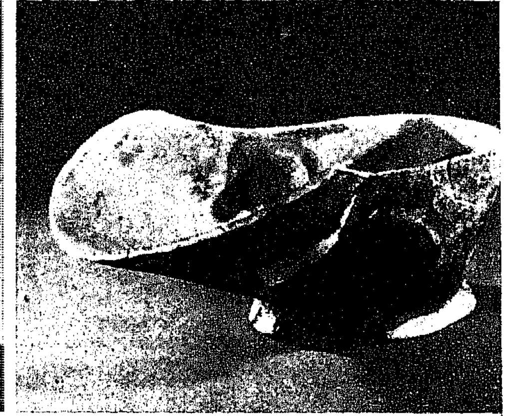


ادوات عظمية : رأس سهم وسنارة صيد السمك وابر ومثقاب



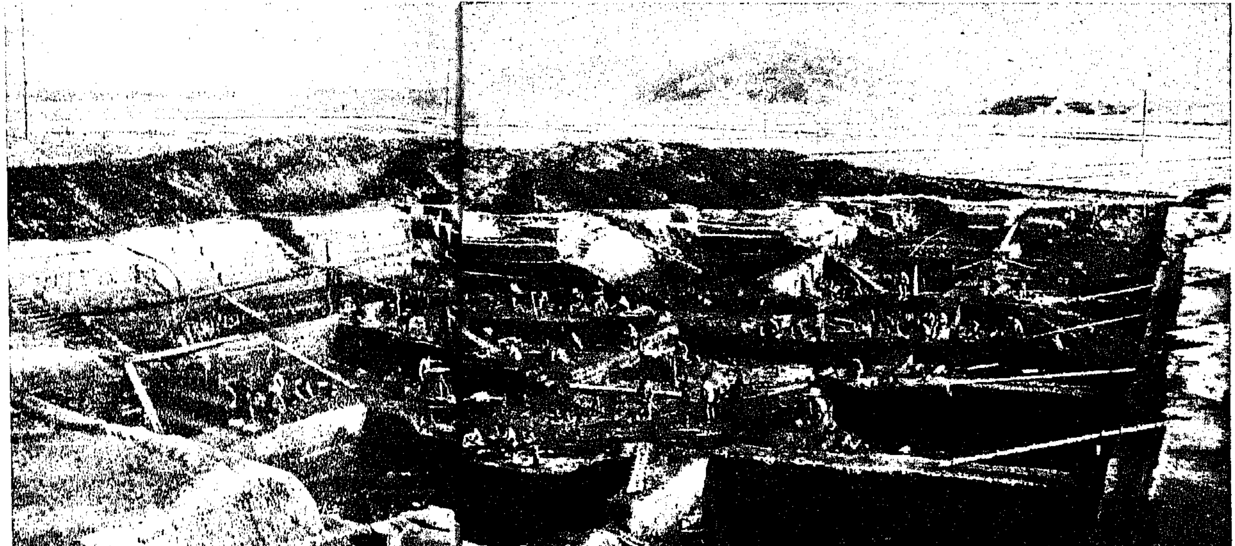
قواعد غرفة دائرية الشكل
وحفر اعمدة وموقد اكتشفت
فى اطلال قرية بانبوه





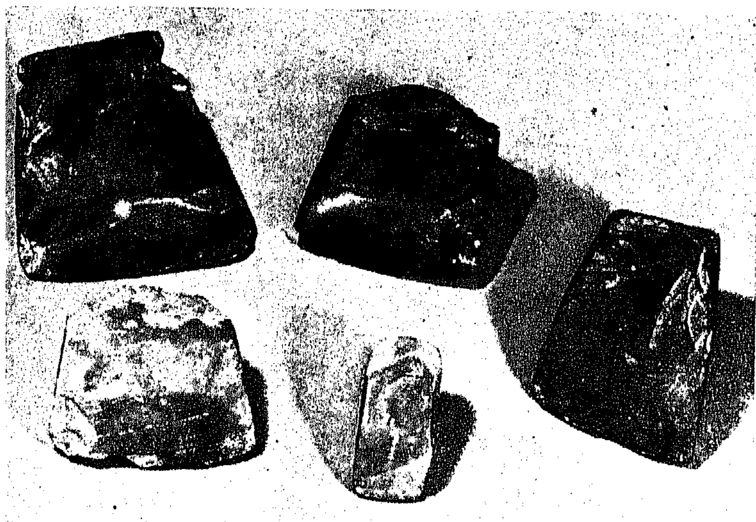
الفخاريات المكتشفة فى اطلال خمدو .. اليسار :
وعاء فخارى ، اليمين : موقد ثلاثى القوائم

اطلال المجتمع البدائى فى خمدو بمحافظة يرياو ـــ مقاطعة تشجيانغ

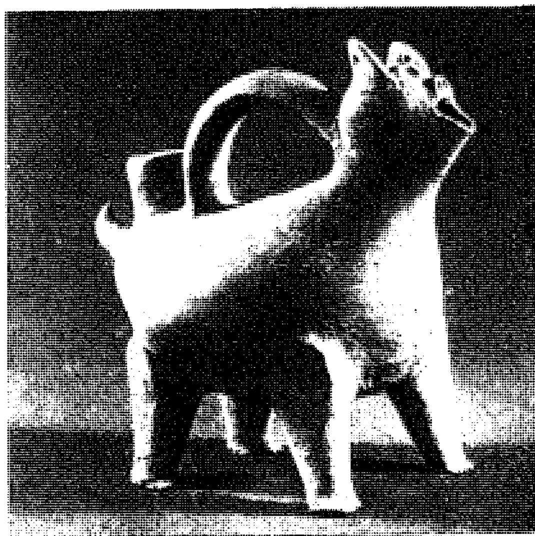


الرز المكتشف في خمدو

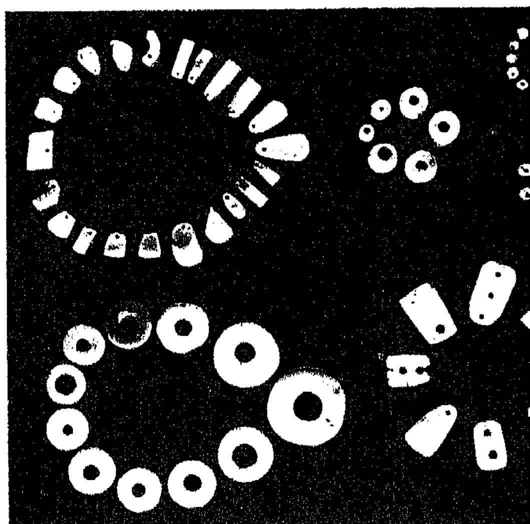




ادوات انتاج حجرية اكتشفت من اطلال خمدو . .
تدل على ظهور فن الصقل في ذلك الزمن



ـزى احمر على شكل الحيوان اكتشف فى داونكو



حلية



الامبراطور هوانغ دى



وعاء منحوت على العظام



مشط من العاج

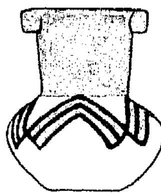


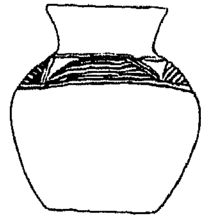
الامبراطور شون

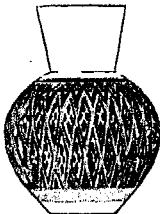


الامبراطور ياو

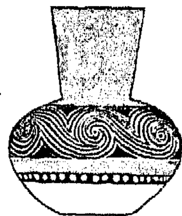






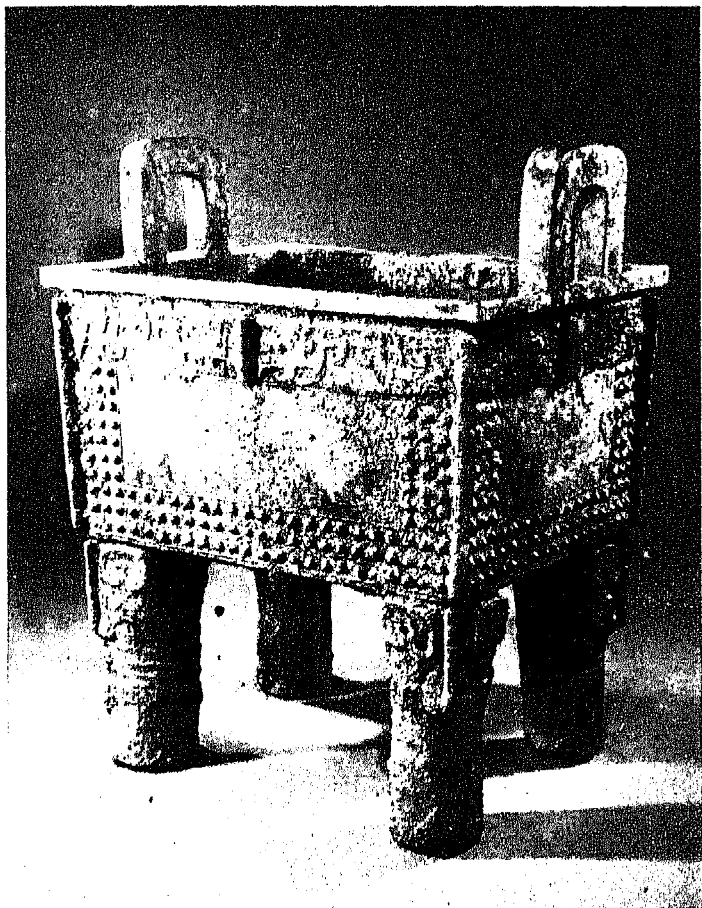






اوعية فخارية ملونة

المجتمع العبودى

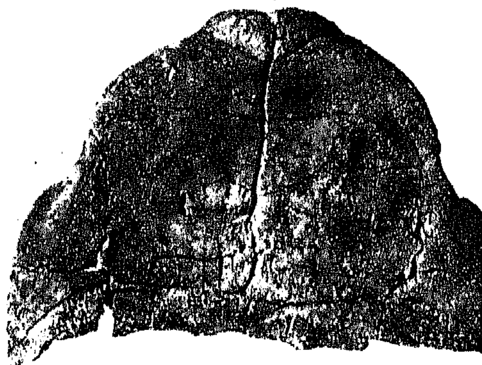


وعاء طهو مربع من البرونز بارتفاع ٨٠ سم . .
اكتشف فى مقبرة ملاك العبيد — يرجع الى اسرة شانغ



اساسات قصور من عهد اسرة تشو اكتشفت بمحافظة تشيشيان ، مقاطعة شنشى

درع سلحفاة اكتشف عام ١٩٧٣ فى آيانغ ، مقاطعة خنان ، وعليه ٥٦ مقطعا مقسمة الى مجموعات كتبه وودينغ ، احد ملوك اسرة شانغ

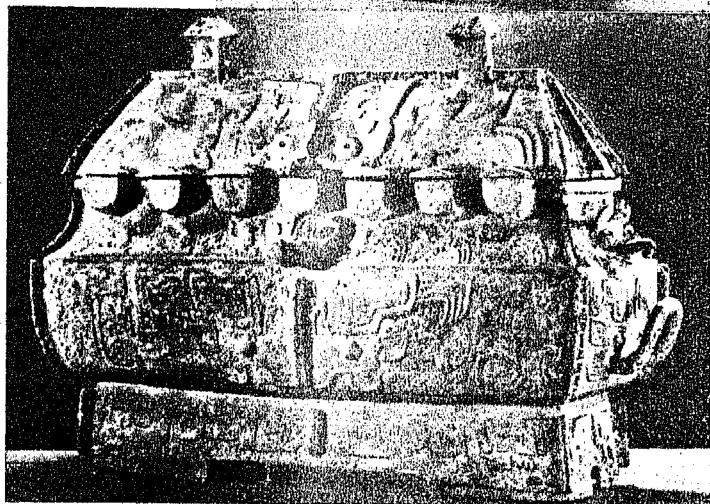




لوح من عظم البقر نحت عليه ١٣٤ مقطعا مقسمة الى ١٦ مجموعة كتبها ون دينغ آخر ملوك اسرة شانغ



البرونزيات



برونزيات مكتشفة فى محافظة فوفنغ ، مقاطعة شنشى — ترجع الى اسرة تشو الغربية





الرسوم على البرونزيات



صحن مصنوع فى دويلة وى من عهد اسرة تشو الغربية يسمى « صحن تشيانغ » وهو اسم رجل من قومية وى التى ذكر انها اشتركت فى الهجوم الذى قام به تشو وو وانغ على اسرة شانغ . ولهذا الصحن قيمة كبيرة فى دراسة تاريخ هذه الدويلة وعلاقتها مع اسرة تشو الغربية



قبر لاحد ملاك العبيد اكتشف فى قرية ووقوان ــ مقاطعة خنان ، طوله من الجنوب الى الشمال ٤٥ مترا وعرضه من الشرق الى الغرب ١٢ مترا وعمقه ٨ر٤ مترا . وقد اكتشف فيه ٧٩ عبدا قدموا قرابين



مجرف يشمى يرجع الى
اوائل اسرة تشو الغربية
اكتشف فى محافظة
لينغتاى ـــ مقاطعة قانسو
وعليه صورة عبد

وعاء برونزي يعرف باسم تشين قونغ وو



كونفوشيوس يلقي درسا

صورة الحكماء الثلاثة (كونفوشيوس فى الوسط مع اثنين من تلاميذه)



سيف من اواخر عهد « الربيع والخريف » استخرج فى
مدينة تشا نغشا — مقاطعة هونان

بوابة لينغسينغ ــ امام معبد كونفوشيوس فى تشيويفو ــ مقاطعة شاندونغ بداية المجتمع الاقطاعى (حقبة الدويلات المتحا ربة) :

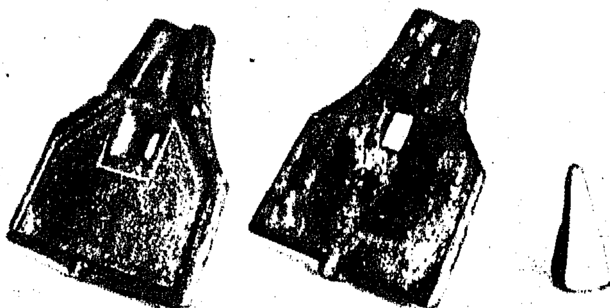
عهد الممالك المتحاربة

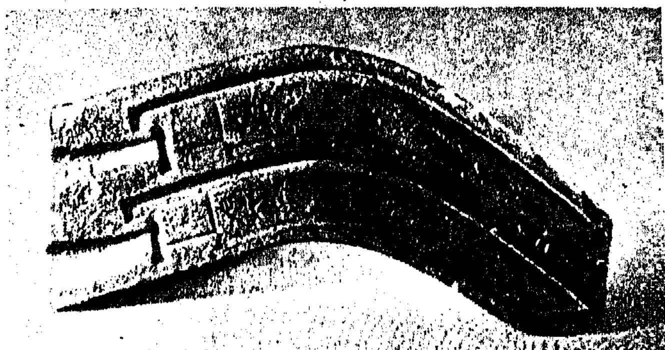


الغاء نظام « المربعات التسعة » وازالة الدروب والحدود التى تفصل بينها



حاجز خشبي عليه صور لكية ملونة من عهد الدويلات المتحاربة





قوالب حديدية لصب المعزقة والمنجل من عهد الدويلات المتحاربة

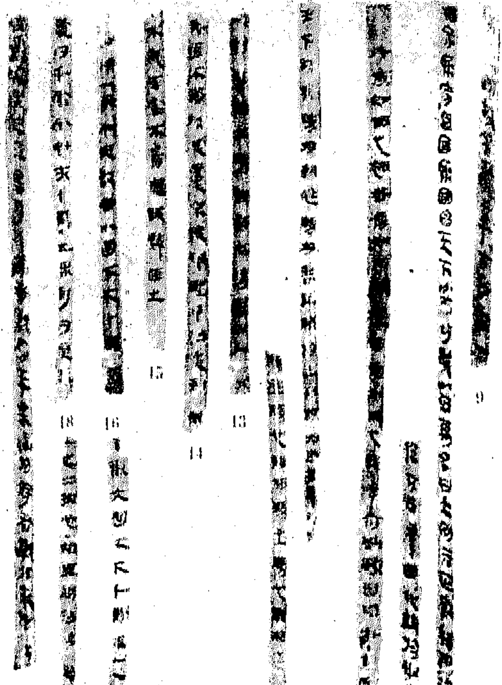
صورة تشيوى يوان



حامل نحاسى من عهد الدويلات المتحاربة اكتشف
فى محافظة بينغشيان ـــ مقاطعة خبى



لى بيـنغ ــ تمثال حجرى من أسرة الهان الشرقية اكتشف عام ١٩٧٤ فى سيتشو ان



شذرات من كتابى « سون تسى بينغ فا » و« سون بين بينغ فا » منقوشة على شريحة خيزران عثر عليها فى قبور أسرة الهان الغربية الواقعة فى مقاطعة شاندونغ



عاء نحاسى مع غطاء عليه صورة حيوان اكتشف فى محافظة قانى ـــ مقاطعة جيانغسو

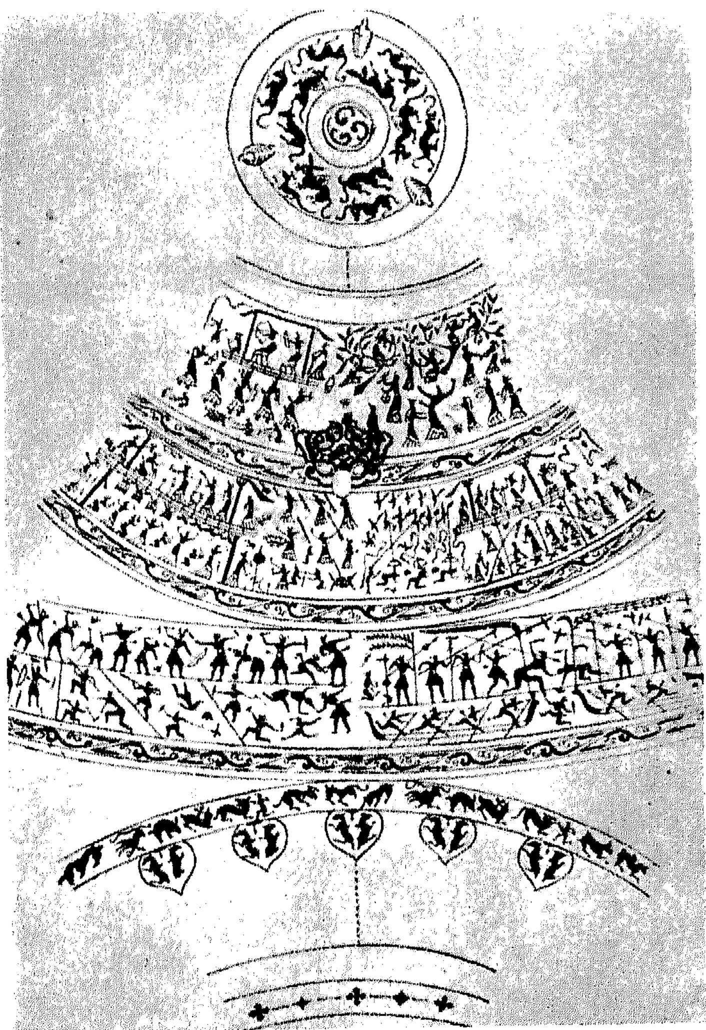
سلسلة الاجراس الموسيقية

« فو » — نوع من الاجراس

« يونغ » نوع من الاجراس







تصا ميم على الادوات البرونزية المجتمع الاقطاعى
(اسرة تشين — الاسرة الشمالية والجنوبية)

المجتمع الاقطاعى

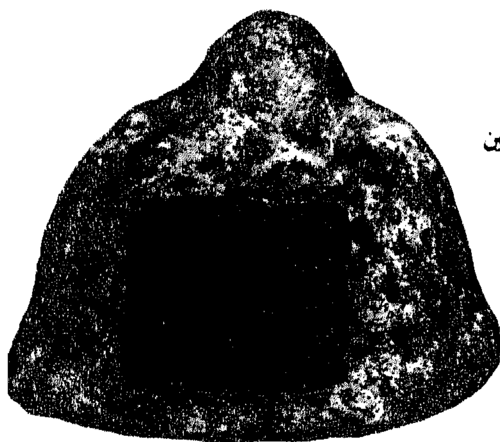
اسرة تشين الملكية



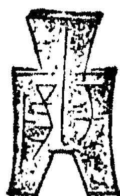
الامبراطور الاول تشين شى هوانغ

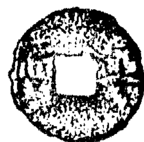
العيار الحديدى لاسرة تشين

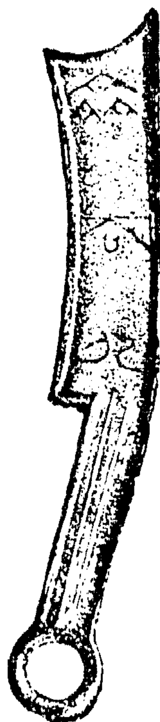


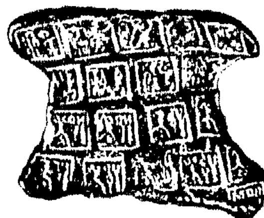


العيار النحا سى لاسرة تشين







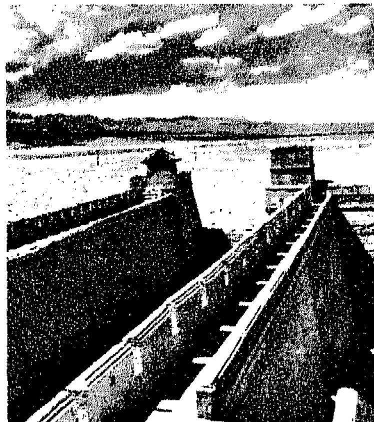


نقد اسرة تشين المستدير ذو الثقب المربع (الوسط) ونقد دويلة تشى على شكل السكين (اليسار) ونقد دويلة تشا وبشكل المجرفة (الاعلى الى اليمين) ونقد تشو مربع الشكل

شرائح خيزرانية نحتت عليها نصوص القوانين والاوضاع الاجتماعية فى عهد الامبراطور تشين شى هوانغ فى أسرة تشين (٢٠٦ — ٢٢١ ق . م) . . محفورة من مقاطعة هوبى

سور الصين العظيم

قلعة بوابة جيايوى



جواسق بوابة جيايوى





مركبة نحاسية مع خيولها النحاسية . . اكتشفت فى ضريح الامبراطور تشين شى هوانغ



الحوذى الملون يجلس على مقعده يمسك العنان بيديه



تمثال قواس



تماثيل المحاربين والخيول . . عثر عليها فى ضريح
الامبراطور تشين شى هوانغ فى شنشى

قسم مأخوذ من رسم قصر أوفان الذى أنشئ فى عهد أسرة تشين . . الرسم فى أسرة مينغ

مشهد من أول انتفاضة فلاحية فى تاريخ الصين . . ثارت تحت قيادة
تشن شين و وو قوانغ من قرية تايبينغ

ختتاو . وكانت خيول هذه القومية تغير تحت قيادة ملاك العبيد الارستقراطيين على دويلات تشين ، تشاو ، يان لاجل النهب مما اضطر هذه الدويلات الى اقامة اسوار عند حدودها الشمالية تحرسها قواتها المسلحة .

وبعد توحيد دويلة تشين للبلاد واصلت قوات شيونغنو تهديد أمن الشمال ، فارسلت الحكومة جيشا بقيادة منغ تيان قوامه ثلاثمئة الف توغل فى سهول ختتاو واستولى عليها . ولتعزيز الدفاع عن هذه المنطقة اقامت حكومة تشين فيها عددا من المدن و ٤٤ محافظة وهجرت اليها السكان من داخل البلاد . وفى نفس الوقت جند تشين شى هوانغ الفلاحين لبناء سور دفاعى متين يمر من خلال الاسوار التى اقامتها دويلات تشين وتشاو ويان ، بعد أن رممت وربطت ببعضها واضيفت اليها امتدادات الى جهتى الغرب والشرق . وهذا هو سور الصين العظيم الذى يبدأ غربا من لينتاو (محافظة مينشيان بمقاطعة قانسو اليوم) ويمتد شرقا الى لياودونغ (فى شمال غربى لياويانغ بمقاطعة لياونينغ اليوم) ، ويبلغ طوله ٢٥٠٠ كيلومتر . وقد رمم الكادحون ووسعوا هذا السور مرات عديدة خلال العصور . والبناء القائم حاليا وصلنا من اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) وهو يبدأ غربا من جيايويقوان ويمتد شرقا الى شانهايقوان ويبلغ طوله اكثر من ٦٠٠٠ كيلومتر .

حكم تشين الاستبدادى

كلفت دولة تشين الشعب اعباء باهظة اذ كان على الفلاحين تسليم ثلثى محاصيلهم الى الحكومة كضرائب بالاضافة الى ما عليهم من الخدمات العسكرية والسخرة . وقد اقام تشين شى هوانغ اكثر من ١٤٠ مجموعة قصور بشمال العاصمة على غرار قصور الدويلات الست ، وسخر اكثر من سبعمئة الف شخص لبناء قصور آفانغ وضريحه بقرب تشانغآن (قرب شيآن بمقاطعة شنشى الحالة) . . اكتشف عام ١٩٧٤ اكثر من ٦٠٠٠ قطعة من تماثيل الجنود والخيول فى الجانب الشرقى من مقبرة الامبراطور تشين شى هوانغ . ومع ان سكان دولة تشين لم يتجاوز العشرين مليونا فقد تجاوز عدد المجندين لبناء القصور والضريح والسور العظيم وحراسة المناطق الحدودية المليون والنصف .

ونظرا لشمول الخدمة العسكرية الشباب والكهول من الرجال فقد اجبرت النساء على نقل الامدادات العسكرية .

وكانت قوانين اسرة تشين قاسية جدا : اخذ العائلة بجريرة فرد واحد منها ، واخذ الجار بالجار . وحين تبوأ الامبراطور الثانى (٢٣٠ ق . م - ٢٠٧ ق . م) ، العرش سنة ٢١٠ ق . م شدد من الاعباء كالسخرة ، ومن العقوبات التى شملت قطع القدم والانف ، والاعدام .

اول حرب فلاحية

ادت هذه السياسة الى خراب الانتاج الاجتماعى والقاء الشعب فى هاوية الفقر ، مما عمق التناحر الطبقى بين الحكام الاقطاعيين والفلاحين . وحدث فى شهر يوليو من عام ٢٠٩ ق . م ان سيق ٩٠٠ فلاح فقير الى السور العظيم فى موقع يوييانغ (محافظة مييون قرب بكين) . وعندما مرت قافلة الفلاحين بداتسهشيانغ من محافظة تشيشيان (جنوب شرقى محافظة سوشيان بمقاطعة آنهوى) هطل مطر غزير وتعطل الطريق فتعذر على القافلة مواصلة السير . وكان ذلك يعنى عدم الوصول الى يوييانغ فى الموعد المحدد ، وهى جريمة يعاقب عليها القانون بالاعدام . وعندها اجتمع العريفان تشن شنغ (؟ - ٢٠٨ ق . م) و وو قوانغ (؟ - ٢٠٨ ق . م) اللذان كانا يخططان للتمرد ببعضهما فقال تشن : « ان الذهاب الى يوييانغ يؤدى الى الموت ، والهرب يؤدى الى الموت ، والتمرد يؤدى الى الموت على الاكثر ، واظن ان الموت فى التمرد افضل . » واعلنا خطة التمرد بقتل ضابطين من القافلة . ثم وقف تشن شنغ يخاطب الفلاحين ويحثهم على التحرك : « ان الملوك والامراء والقادة ليسوا افضل منكم . » وتحمس الجميع فرفعوا راية الانتفاضة . وكان سلاح الفلاحين الهراوات لكنهم اقسموا على الاطاحة بحكم اسرة تشين . وهكذا اشتعل فى داتسهشيانغ لهيب اول حرب فلاحية فى تاريخ الصين .

استولت قوات الانتفاضة على داتسهشيانغ ، ثم على محافظة تشيشيان وعدد من حواضر المحافظات المجاورة وانضم اليها الفلاحون افواجا . ولم يمض الا شهر واحد حتى اصبحت قوة كبيرة تتألف من حوالى ستمئة او سبعمئة عربة حربية واكثر من الف فارس وعشرات الآلاف من المشاة . وكانت

الانتفاضة تتعاظم وتتقدم حتى احتلت محافظة تشنشيان (محافظة هواييانغ الحالية بمقاطعة خنان) ، واقامت اول سلطة فلاحية — تشانغتشو — فى تاريخ الصين .

واخذ تشن شنغ ووو قوانغ بايفاد المبعوثين الى مناطق شمال النهر الاصفر وشبه جزيرة شاندونغ وحوض اليانغتسى الاوسط للعمل على تطوير القوى المعارضة لاسرة تشين ، فهب الفلاحون فى معظم محافظات هذه المناطق لقتل الولاة والمحافظين والاستيلاء على الحواضر الهامة . ثم كلف تشن شنغ صاحبه وو قوانغ بقيادة الهجوم على شينغيانغ وهى مدينة عسكرية هامة (فى شمال شينغيانغ الشرقى بمقاطعة خنان) وعهد الى قائد آخر اسمه تشو ون بقيادة الهجوم على قوانتشونغ — قلب الدولة . وفى طريق زحفه اليها عمل تشو ون على زيادة قواته فانضم اليها عشرات الالاف من المحاربين . واندفعت القوة بسرعة حتى وصلت الى مكان يبعد عن العاصمة شيانيانغ خمسين كيلومترا وذلك فى سبتمبر من نفس السنة . وبلغت انباء الزحف الامبراطور الثانى فاستولى عليه الذعر والارتباك . ولعدم قدرته على تجميع قواته بالسرعة المطلوبة سلح العاملين فى بناء الضريح ، وكلف قائده تشانغ هان بقيادتهم فى الهجوم المضاد . وجرت معارك طاحنة لمدة شهرين اسفرت عن هزيمة تشو ون ، وقتل وو قوانغ على يد احد المتآمرين . ثم هاجمت قوات تشين محافظة تشنشيان ، وبينما كان تشن شنغ يقود قواته لمجابهة الهجوم اغتاله سائق عربته . ولكن قوات الانتفاضة التى يقودها ليوى تشن ، احد ضباط تشن شنغ ، شنت هجومها المضاد على قوات تشين فاسترجعت محافظة تشنشيان واعدمت الخائن الذى اغتال تشن شنغ . ثم اتحدت مع فصائل اخرى من الثائرين لمواصلة النضال .

زوال اسرة تشين

وبالرغم من قتل تشن شنغ و.و قوانغ فان جذوة الثورة الفلاحية التى قاداها لم تخمد بل تعاظمت بمرور الايام ، وانتهت الى ظهور قوتين جديدتين بقيادة ليوبانغ (٢٥٦ ق . م — ١٩٥ ق . م) وشيانغ يوى (٢٣٢ ق . م — ٢٠٢ ق . م) وكان الاول موظفا صغيرا فى اسرة تشين . اما شيانغ يوى فهو من عائلة ارستقراطية بدويلة تشو ، تمرد مع عمه شيانغ ليانغ على اسرة تشين فى موقع وو (سوتشو بمقاطعة جيانغسو) وذلك فى شهر سبتمبر سنة ٢٠٩ ق . م .

ثم تبعه ليو بانغ الذى تمرد فى محافظة بيشيان (محافظة بيشيان بمقاطعة جيانغسو) .
وفى سنة ٢٠٧ ق . م تغلبت قوات شيانغ يوى على القوات الرئيسية لاسرة تشين بقيادة تشانغ هان الذى استسلم مع جنوده لشيانغ يوى . وفى السنة التالية احتلت قوات ليو بانغ عاصمة أسرة تشين معلنة زوالها النهائى . واقتسم شيانغ يوى السلطة مع ليو بانغ ، فاتخذ لنفسه لقب « ملك تشو الغربية المسيطر» واعطى ليو بانغ لقب ملك الهان . ومن اجل ابتزاز ثمار الحرب الفلاحية واغتصاب العرش نشبت حرب تشو - هان التى استمرت اربع سنوات بين شيانغ يوى وليو بانغ وانتهت بانتصار الاخير حيث قامت اسرة الهان الغربية ، واصبح ليو بانغ الامبراطور هان قاو تسو ، اى الامبراطور الاول للهان وذلك فى سنة ٢٠٢ ق . م . وقد اتخذ من تشانغآن عاصمة للامبراطورية الجديدة . وهى أسرة الهان الغربية فى تاريخ الصين .

أسرة الهان الغربية

كان ليو بانغ (٢٥٦ – ١٩٥ ق . م) زعيما لاحدى وحدات جيش الانتفاضة الفلاحية ، فى أواخر أسرة تشين ، ثم أقام بعد أن تكللت الحرب بنصره النهائى أسرة الهان الغربية (٢٠٦ ق . م – ٢٤ م) ، وأصبح أول أباطرتها . وقد سار فى بداية حكمه وفق التنظيمات السياسية لدكتاتورية تشين المركزية الاقطاعية ، قبل ان يجرى عليها التعديلات التى تلائم مصالح دولته ثم يردفها بسن قوانين جديدة لتدعيم حكمه الاقطاعى .

تعديل وتعزيز السياسة العامة للدولة

استهلكت الحرب الطويلة كميات مذهلة من الثروات الاجتماعية ، فاحدثت ركودا اقتصاديا فى جميع القطاعات ، وتضاعف سعر الغلال ، وازداد الشعب فقرا وجوعا ، حتى لم يكن هناك أربعة خيول متشابهة الالوان لعربة الامبراطور ولم يقدر وزراؤه على اكثر من العربة التى تجرها الابقار . ولعلاج هذا الانهيار طرح لو جيا مستشار الامبراطور هان قاو تسو خطته قائلا : كنا نعتمد فى الدرجة الاولى على القوة العسكرية لاقامة سلطتنا ؛ أما اليوم وبعد انتزاع هذه السلطة فان الجيش وحده لا يكفى اذ أننا بحاجة أيضا الى النظام القانونى الذى يتطلبه استقرار وتدعيم سلطات الدولة . وحلل لو جيا فى هذه المناسبة أسباب انهيار أسرة تشين فقال : كان الشعب يعانى الاستغلال الاقتصادى القاسى والاضطهاد السياسى الفظيع على يد الطبقة الحاكمة التى تجاوزت حتى حدود قوانينها القاسية ، فدفعت الناس الى مقاومتها لكن أسرة تشين جابهت المقاومة بالقمع الدموى مستخدمة قواتها المسلحة الضاربة دون ان تعى حقيقة ان القمع لا يؤدى الا الى اشتداد المقاومة . وقد ترتب على ذلك تفكك الدولة التى دامت حوالى ١٥ سنة فقط . ومن هنا بين المستشار الحصيف ان السلطة الجديدة

فى أمس الحاجة الى سياسة تقوم على تطوير الانتاج الزراعى ، كوسيلة أساسية لمعالجة الانهيار الاقتصادى وتغطية حاجات الناس . وقد لقيت ملاحظاته تفهما من الامبراطور .

وعلى هذا الاساس شرع الوزير الاكبر شياو خه قانونا استمده من قوانين تشين للضرائب والسخرة والتجنيد وغيرها عرف بالقانون ذى التسعة أبواب ، وهى الاقسام التى اشتمل عليها . كما سنت انظمة لقياسات الحقول وتحديد الجبايات الزراعية على يد مسئول المالية تشانغ تسانغ . وطبق شياو خه نظام التسجيل السكانى الذى حظر الانتقال الحر على الفلاحين وبعض ملاك الاراضى والموظفين الصغار ، واجبر الذين تركوا اراضيهم على السخرة للسلطات المحلية بوصفهم اقنانا . وفى سياق ذلك فرضت على الشعب جملة من الاعباء شملت الأبواب الاربعة التالية : أ — ضريبة الارض الزراعية ، وكانت بنسبة ١ / ١٥ من المنتوج ثم انخفضت الى ١ / ٣٠ وتستخدم حصيلتها لتغطية نفقات ادارة شؤون الدولة .

ب — ضريبة الرأس : تفرض على المواطنين بنسبتين : الاولى لمن تتراوح أعمارهم بين ٧ و١٤ والثانية لمن هم بين ١٥ و٥٦ . وتستخدم حصيلة هذه الضريبة لسد النفقات العسكرية .

ج — السخرة : تفرض على الرجال ما بين ٢٣ و٥٦ ، وتشمل بناء المدن والقصور وحفر قنوات الرى وتمهيد الطرق وانشاء المقابر الامبراطورية ومدتها شهر واحد كل عام . ويعفى من السخرة من يدفع بدلا نقديا .

د — التجنيد : يجب على كل رجل ما بين ٢٣ و٥٦ سنة ، ومدته سنتان يقضى احداهما فى بلدته والاخرى خارجها .

ورغم هذه الاعباء فقد جلب النظام القانونى الجديد الذى وضعه شياو خه بعض التحسن لمعيشة الكادحين ، بالمقارنة مع ما عاناه من مظالم أسرة تشين .

الانتاج الزراعى يتطور بسرعة

عنى تساو تسان الذى خلف شياو خه فى الوزارة بتطوير الانتاج الزراعى واعطاه الاسبقية على سائر الاعمال ، وخير مثال على ذلك ، جعل العمل فى

بناء مدينة تشانغآن – عاصمة أسرة الهان الغربية قاصرا على مواسم الفراغ من الزراعة . وكان الاباطرة فى أوائل هذه الاسرة معنيين بالزراعة وتربية دود القز ، وقد اصدر الامبراطور هان جينغ دى – حفيد الامبراطور الاول قاو تسو منشورا قال فيه : « لا يمكن أن يحل الذهب واليشب والمجوهرات رغم غلائها وندرتها محل الغلال والكتان والحرير ، فينبغى على الموظفين المحليين أن يحثوا الناس على زيادة دود القز واستصلاح الأراضى البور» . وبالطبع فان الهدف الجوهرى من ذلك هو تنمية اقتصاد الطبقة المستغلة ورفع ايراداتها .

وقد احرزت الزراعة فى أوائل هذه الاسرة تقدما ملحوظا ، وفى أواخر عهد الامبراطور جينغ دى كانت الدولة تملك كميات طائلة من احتياطات الحبوب والاموال . وبلغ الازدهار الاقتصادى ذروته فى أواسط الاسرة ، أى فى الحقبة ما بين ١٤٠ – ٨٧ ق . م وهى مدة حكم الامبراطور هان وو دى (١٥٦ – ٨٧ ق . م) . وتعمم استعمال الخيل والبقر للحراثة فيما بين بحر بوهاى الى ممرات خشى بمقاطعة قانسو ، ومن السور العظيم الى نهر اليانغتسى ، واخذت أجهزة الحديد تحل تبعا لذلك محل الادوات البدائية ، ومنها المحراث الحديدى ، ٤٠ سم طولا و٤٢ سم عرضا ، كما أنشئت مشروعات الرى على نطاق البلاد ، ومنها مشروع قناة تشنغقوه الذى يتألف من مجرى رئيسى تتفرع من اعلاه ست ترع لارواء الحقول ومن أسفله قناة بايتشيوى البالغة ١٠٠ كيلومتر ، وقد احيا ١٨٠ ألف هكتار . وتقدمت تبعا لهذا التطور فى الانتاج فنون الزراعة وظهرت مؤلفات تناولت التجارب التى استوعبها المزارعون خلال الانتاج مثل كتاب تشى شنغ تشى وهو من اقدم الكتب الزراعية فى الصين وكتاب «أساليب الفلاحين الزراعية» الذى ظهر فى عصر لاحق متضمنا نفس الموضوعات التى تناولها تشى شنغ تشى . وجدير بالذكر ان صناعة الغزل والنسيج فى اسرة الهان الغربية تطورت سريعا وخاصة صناعة الحرير . ومن المنسوجات الحريرية الحرير الدمقسى والحرير المطرز والحرير الشفاف .

الكنفوشية فى الصين

دخلت أسرة الهان الغربية حقبة ذهبية دامت ٥٤ سنة (١٤٠ – ٨٧ ق . م) ، كان فيها الامبراطور هان وو دى على رأس الدولة . ويرتبط حكم هذا الامبراطور

بالتطبيق الصارم لسياسات الوزير الاكبر دونغ تشونغ شو فى المجال الثقافى والدينى . وكان لهذا الوزير عناية بالفكر الفلسفى والدينى وقد انشأ لحساب الطبقة الحاكمة طقما كاملا من الرؤى المستمدة من الكونفوشية أكد فيه على الامبراطور أن يفعل بمقتضى وحي السماء ، وأن يطبق « سياسة عطف » على الجماهير تهبه السماء محصولا زراعيا اوفر . وكان يروج لفكرة « التواهب بين للسماء والانسان » راميا من خلال تأليه الامبراطور الذى يمثل مصالح الطبقة الحاكمة الى توطيد حكمه وحمايته من ردود الفعل الشعبية . ومن اجل ان تأخذ هذه الافكار مداها الاجتماعى الكامل ، كانت هناك حاجة لحصر الاستذهان العام فيما تقول به الكونفوشية . وتطمينا لهذه الحاجة أنشئ عدد كبير من المدارس بادارة الحكومة المركزية والحكومات المحلية قصرت الدراسة فيها على كتب الكونفوشيين مثل « كتاب التاريخ » ، « كتاب الطقوس » « كتاب الطوالع » وكتاب « الربيع والخريف » ، ومنع الناس من تداول كتب المدارس الاخرى التى كانت لا تزال منتشرة فى عموم المجتمع الصينى . وهكذا أصبحت الكونفوشية بالتدريج ايديولوجية المجتمع الاقطاعى الصينى .

ومن تعاليم دونغ تشونغ شو المستمدة من الكونفوشية « الخضوع المطلق الثلاثى » أى خضوع الوزراء للامبراطور والابناء للاباء والزوجة لبعلها .

الحرب ضد قبيلة شيونغنو

فى أوائل أسرة الهان الغربية ، كانت مناطق الشمال بمقاطعات خبى وشانشي وشنشى مسرحا لغارات قبيلة بدوية تدعى شيونغنو . وقد تفاقمت اعتداءات هذه القبيلة حتى شملت عام ٢٠٠ ق . م جنوب غربى تاييوان بمقاطعة شانشى . وهنا تصدت لهم قوات ضخمة من الهان تناهز ٣٢٠ ألف جندى ، ودفعتهم الى ما وراء هذه المقاطعة . لكنها فوجئت حين كانت تطاردهم فى شمال شرقى داتونغ بكمين دبر باحكام وسرعة خاطفة ونتيجة ذلك انقطع تموين جيش الهان سبعة أيام كاملة . وحاول الامبراطور هان قاو تسو انقاذ الجيش المحاصر فلم يفلح . . وعندها ادرك ان حكومته لا تزال غير قادرة على مجابهة هذا العدو المتمرس فى القتال ، فاضطر الى التراجع والمساومة فزوج زعيم شيونغنو بأميرة من الهان واختصه بهدية ضخمة من الغلال والحرير وعقد معه اتفاقات تجارية

لتبادل حرير مدن الداخل بمواشي وفراء منطقته . وبهذه الخطة استطاع الامبراطور الهاني ان يحد من اعتداءات شيونغنو ، رغم ان ارستقراطييها لم يقنعوا بما كسبوه فواصلوا غاراتهم ولكن على مناطق الشمال النائية .

ومع التطور العاجل الذى طرأ على الوضع الاقتصادى حتى عهد الامبراطور هان وو دى توفرت الشروط السياسية والمادية لخوض الحرب ضد هذه القبيلة الخطرة ، فبدأت سلسلة من المعارك العنيفة الطويلة الامد بلغت ذروتها عام ١١٩ ق . م حيث وقعت المعركة الحاسمة بين الطرفين .

كان ذلك فى ربيع هذا العام حين تحرك جيشان من الهان مؤلفان من مئة ألف فارس ومئات الالوف من المشاة بقيادة وى تشينغ وخوه تشيوى بينغ ، وتوغلا فى أعماق الصحراء المنغولية من عدة اتجاهات . وانتقل وى تشينغ أمسية عاصفة فوجه بعد اقامة خط تحصين من العربات الحربية ، طابورا من خمسة الاف فارس لاقتحام مواقع العدو ، ثم أمر المشاة بالزحف نحو هذه المواقع باتجاهين لمحاصرتها . واطبقت الجيوش على فرسان شيونغنو فانفجر قتال مرير اسفر عن اصابات بليغة فى اوساطهم ، وعند ذلك تراءى لزعيم البدو ان قواته لن تقوى على الصمود طويلا فاخترق الحصار بحماية نخبة من مقاتليه ، هاربا نحو الشمال الغربى ، وقد طاردته قوات وى تشينغ فابادت اكثر من عشرة الاف من جنوده . هذا فى حين كان جيش خوه تشيوى بينغ يخوض معركة اخرى على جبهة ثانية انتهت بابادة ما يزيد على ٧٠ ألفا من رجال شيونغنو . وعكفت شيونغنو على جراحها تلعقها دون ان تستطيع التحرك بعد هذه الهزيمة النكراء ، مما اتاح للامبراطور هان وو دى تهجير اكثر من مليون نسمة الى مناطق ممرات خشي وختاو بعد تأمينها من الغزو . وقد أخذ هؤلاء الكادحون بزراعة هذه الأراضى البكر التى لم تطأها قدم من قبل .

شق الدروب الى مناطق الصين الغربية

كان ما يمتد فوق أقصى غرب مقاطعة قانسو وشينجيانغ من البقاع الفسيحة يسمى فى عصر الهان شييوى أى اقاليم الصين الغربية . وكان سكان هذه الاقاليم يعيشون على الزراعة والرعى وقد ظهرت فيها عشرات الكيانات السياسية ، قبل أن تقع تحت سطوة شيونغنو التى فرضت على سكانها من مختلف القوميات افدح

الضرائب والاثارات . وفى مجرى حملاته التأديبية ضد هذه القبيلة وجه هان وو دى عام ١٣٨ ق . م وفدا برئاسة تشانغ تشيان (؟ — ١١٤ ق . م) الى بلده دايويتشي جنوب غرب هضبة البامير لاستنهاض اهلها ضد شيونغنو . وقد وقع تشانغ وأعضاء وفده فى قبضة القبيلة عندما مروا باراضيها وحجزوا هناك عشر سنوات . ثم استأنفوا سيرهم نحو الغرب ولكن دون أن يروا فى بلدة دايويتشي أيا من اهلها الذين كانوا قد هجروها فرارا من غارات شيونغنو . وبعد عودته روى تشانغ تشيان للامبراطور هان وو دى ما رآه فى هذه الرحلة وأفضى اليه برغبة ابناء تلك الاقاليم فى اقامة الصلات مع اسرة الهان .

أرسل هان وو دى مبعوثه تشانغ تشيان ثانية الى المناطق الغربية عام ١١٩ ق . م أى بعد اخراج شيونغنو منها . وتحرك تشانغ من تشانغآن مع وفد من زهاء ثلاثمئة فتجولوا فى الدويلات القائمة هناك وعرفوا ابناءها بمنتجات أسرة الهان التى كانوا يحملونها معهم ، ثم عادوا حاملين رسائل وهدايا من امراء تلك الدويلات . وكانت هذه الجولة بداية تطور جديد فى العلاقات الاقتصادية والثقافية والتجارية بين أسرة الهان ودويلات غرب الصين . ومن خلال ذلك نقلت تقاوى الكروم والجزر والجوز من غرب الصين الى تشانغآن ، ومنسوجات الحرير وأدوات الحديد من تشانغآن الى غرب الصين ، وتعلم أبناء الشعب من مختلف القوميات فى مناطق الحدود الغربية تقنية التعدين وحفر الآبار . كما بدأ من ذلك الوقت نقل الحرير الصينى عبر المناطق الغربية الى ايران فغرب آسيا فاوروبا الرومانية حيث تم فتح طريق الحرير المعروف بين الصين وغرب آسيا وأوروبا . وقد أقامت حكومة الهان الغربية عام ٦٠ ق . م هيئات رسمية فى هذه الانحاء لادارة الشؤون العامة وتأمين المواصلات على هذا الطريق . هذا بينما تأسست حكومات محلية فى جنوب سيتشوان الغربى وقويتشو ويوننان . وبفضل هذه الاجراءات تم ربط المناطق الغربية بالحكومة المركزية وادخالها من ثم فى دائرة التطور الحضارى والسياسى لعموم الصين .

على صعيد العلم والثقافة

مع النمو الحثيث لقوى الانتاج الاجتماعى وتوطد الاتصالات بين القوميات الصينية ، تقدم النشاط العلمى والثقافى فى مجالاته المختلفة على المستويين

النظرى والتقنى . ففى هذه الحقبة ظهر كتاب « الحساب ذو التسعة أبواب » الذى احتوى على ٢٤٦ مسألة رياضيات تتعلق بكيفية قياس المساحات والابعاد وحساب حجم حفريات البناء وسعة المخازن مع الكثير من مسائل الحساب والجبر والهندسة . وفيها ظهر الورق لأول مرة فى العالم . وكان الناس قبل ذلك يكتبون على شرائح الخيزران والخشب او الحرير ، حتى أسرة الهان الغربية حيث استخدم الورق المصنوع من ألياف الحرير ، ثم من ألياف الكتان ، وقد عثر عام ١٩٥٧ على هذا الصنف الباكر من الورق فى مقبرة لاسرة الهان فى باتشياو ، شيآن ، شنشى .

ومن اعلام هذا العصر سيماتشيان (١٣٥ او ١٤٥ ق . م — ؟) وهو ابن لمؤرخ رسمى كان مسئولا عن تحرير الكتب التاريخية للدولة . وقد ورث منصب والده ثم نحى عنه بعد سوء تفاهم مع الامبراطور هان وو دى فعكف على تأليف كتاب شامل فى تاريخ الصين استغرق اتمامه عشر سنوات . وكان قد استوعب منذ شبابه معارف نظرية وعملية واسعة اذ اتيح له ان يتجول فى انحاء الصين فزار السور العظيم ومناطق الاقليات القومية وكهوف دايوى ، كما استفاد من منصبه لدراسة الكتب المودعة فى خزانة الامبراطور . ويضم كتابه مائة وثلاثين مقالة من ٥٠٠ ألف مفردة شملت حوالى ثلاثة الاف سنة ابتداء من عهد زعيم اتحاد القبائل هوانغ دى — من اشخاص الحكايات — حتى الامبراطور هان وو دى . وقد تحدث فى هذا الكتاب عن الدور العظيم للانتفاضة الفلاحية بقيادة تشن شنغ ووو قوانغ فى اسقاط أسرة تشين ، ونوه بالشاعر العظيم تشيوى يوان وندد بجرائم الاباطرة والموظفين وسخر حتى من الامبراطور هان وودى لولعه بالخرافات . ويضم الكتاب ٧٠ مقالة كرست للتراجم التى شملت مشاهير الاطباء والعلماء والتجار والكهان كما تناولت بعض الشخصيات الاجتماعية من العيارين والمحسنين والموظفين العتاة . فيعتبر أدبا مثاليا لتراجم الشخصيات . . يعكس بلغة بسيطة وحيوية التناقضات الاجتماعية المعقدة .

* تم اختراع الورق الليفى — الذى عم استعمامه فى العالم — على يد تساى رون من عبيد البلاط فى أسرة الهان الشرقية وقد صنعه من الياف النباتات (قشور الاشجار ومخلفات الكتان والقماش وشبكات الصيد) مستفيدا من الخبرات السابقة .

تفكك أسرة الهان الغربية وظهور الشرقية

يرتبط تطور الاقتصاد الاقطاعى فى اسرة الهان الغربية (٢٠٦ ق . م — ٨ م) بانتقال ملكية الاراضى كليا من الفلاحين الى الملاكين . وفى اواخر هذه الاسرة كان عدد الذين يمتلكون مئات ألوف الموات من الحقول الخصبة فى ازدياد مطرد ، وقد انخرط فى هذه العملية ليس ملاك الاراضى وحدهم بل النبلاء وكبار الموظفين وكبار التجار ، الذين انضموا الى بعضهم ليكونوا القوة السائدة فى كل المجتمع . أما الفلاحون الذين فقدوا ارضهم فاصبحوا اما أقنانا واما متشردين . وهكذا بلغ التناقض بين الفلاحين والطبقة الحاكمة الاقطاعية ذروته ، معجلا باندلاع نيران الانتفاضات الفلاحية ضد هذه الاسرة .

ففى عام ٨ م اقام وانغ مانغ (٥٤ ق . م — ٢٣) أسرة جديدة باسم شين بعد ان انتزع السلطة العليا من ابن اخته — آخر اباطرة الهان الغربية . وأقدم وانغ مانغ لتدعيم حكمه على سن قوانين جديدة حاول بها تخفيف حدة التناقض بين الفلاحين وملاك الاراضى ، وقد نصت هذه القوانين على جعل الاراضى ملكا للدولة لا يجوز بيعها وشراؤها ، واعطى لكل زوجين الحق فى الانتفاع بمئة مو من الحقول وتسترجع الحكومة ما تجاوز هذا الحد لتوزيعه على المزارعين الذين لا يملكون . كما نصت على عدم جواز بيع الاقنان . . على ان هذا الاصلاح لم يستمر طويلا ، فلم تمض ثلاث سنوات حتى ألغيت القوانين الجديدة تحت ضغط الارستقراطيين والبيروقراطيين وكبار ملاك الاراضى . وقام وانغ مانغ زيادة على ذلك بتغيير فئات النقود اكثر من مرة ثم صار الى اصدار عملة تساوى ٣/ ٥٠ من نقد الهان الغربية ، مما نتج عنه افلاس العديد من الناس . وكانت الطبيعة تضيف الى مظالم الحاكم وطبقته كوارث متصلة عمت فى أواخر

حكم هذه الاسرة كل انحاء البلاد .

امام هذا الوضع الذى لا يطاق ، اندلعت عام ١٧ انتفاضة هوبى بقيادة وانغ كوانغ ووانغ فنغ ، وقد رابط هؤلاء المتمردون فى اعماق الغابات فاطلق عليهم «جيش الغابات الخضر» وكانوا يشنون حملاتهم على المواقع الحكومية ويوزعون ما يغنمونه منها على الفقراء ، فلقى جيشهم تأييدا حماسيا من الكادحين ادى الى ازدياده بأعداد غفيرة ناهزت الثمانين الفا فى بضعة شهور .

وفى وقت مقارب تمرد فان تسونغ فى محافظة جيويشيان بمقاطعة شاندونغ واستطاع ان يلف من حوله الوف الفلاحين وتأليف جيش عرف باسم «جيش الاهداب الحمر» لان مقاتليه كانوا يصبغون أهدابهم بلون احمر . وقد وضع هذا الجيش على عاتقه تأمين حياة الشعب ضد انتهاكات الاقطاعيين واعلن مبدأ القصاص فى القتل والجرح . وامتدت فعالياته العسكرية الى مقاطعات شاندونغ وخنان وشنشى وشانشى . ولمجابهة هذه الانتفاضات وجه وانغ مانغ عام ٢٢ قوتين ضاربتين اولاهما نحو مقاطعة شاندونغ والثانية الى مقاطعة خنان . وتصدى ذوو الاهداب الحمر للقوة الاولى فالحقوا بها هزيمة نكراء فى معركة دونغبينغ غربى شاندونغ . وبعد ذلك بقليل منى وانغ مانغ بهزيمة مماثلة على يد جيش «الغابة الخضر» ، فى محافظة يشيان مقاطعة خنان ، وبذلك صار الطريق الى العاصمة تشانغآن مفتوحا أمام جيوش الفلاحين التى توجهت لاحتلالها وانهاء حكم هذه الاسرة . وهو ما تم اخيرا بالتنسيق مع جماهير العاصمة التى انتفضت من جانبها وقتلت وانغ مانغ معلنة سقوط اسرة شين .

كان ليو شيوان (؟ — ٢٥م) وليو شيو (ق . م — ٥٧م) الاميران من الهان الغربية قد تسللا الى صفوف جيش الانتفاضة الفلاحية يساورهما امل فى استعادة مجدهما الزائل . وتمكن ليو شيو فعلا من اغتصاب القيادة فى جيش «الغابة الخضر» وقد استغل مركزه القيادى فى هذا الجيش لاضعافه وقتل بنفسه عددا من زعماء الفلاحين . وبسبب ذلك انشق عليه وانغ كوانغ الذى انضم بقواته الخاصة الى جيش «الاهداب الحمر» وفى هذه الاثناء استمر الزحف نحو العاصمة حيث تم احتلالها . . وهنا نظم ملاك الاراضى فى الارياف المحيطة بالمدينة قوات جديدة وضربوا حصارا حول العاصمة المحررة . واذ رأى جيش الفلاحين صعوبة البقاء فى المدينة تحت هذا الحصار اضطر الى مغادرة مواقعه .

وحدث فى نفس الوقت ان زحف جيش الغابة الخضر الذى سقط تحت قيادة ليو شيو من مقاطعة خنان الى مدينة لويانغ بعد ان ضم اليه فلول جيش الاهداب الحمر المنسحبة من العاصمة . واستولى هذا الجيش على مدينة لويانغ حيث تم للقائد المندس ليو شيو اغتصاب ثمار النصر الذى حققه الفلاحون ونصب نفسه امبراطورا معلنا تأسيس اسرة جديدة هى الهان الشرقية اتخذت من لويانغ عاصمة لها .

تحولات الوضع الاقتصادى

كانت طبقة كبار ملاك الاراضى هى القاعدة الاجتماعية لاسرة الهان الشرقية . ومن خلال امتيازاتهم السياسية والاقتصادية المتعددة تم لهم الاستئثار بمساحات طائلة من القيعان الخصبة استثمروها بأيدى الفلاحين الذين اجبروا على العمل كاقنان . وكان كل مالك يهيمن على زهاء عشرة آلاف عائلة قن ويحتجن أموالا طائلة . وقد انشأ الملاكون مزارع وبساتين ومراعى ضخمة اشتغل فيها الاقنان بغرس اشجار التوت ورزع الكتان وتربية دود القز وما يلحق ذلك من نسج الحرير والكتان وتخمير الخمور واستخراج السكر . وللحيلولة دون فرار الاقنان ولكبت مقاومتهم ، اقيمت فى كل ضيعة قلعة ضخمة تحيط بها أسوار عالية ومخافر فى أطرافها الاربعة ، واحيطت الاسوار الخارجية بخنادق عميقة ، هذا علاوة على فرق الحماية الخاصة بكل اقطاعى . وكان بعض كبار ملاك الاراضى يقبضون على زمام السلطات المحلية مباشرة ويتوارثون بعض المناصب المركزية أبا عن جد .

وفى أوائل سنى الهان الشرقية ، استصلحت الأراضى البور بأيدى الفلاحين والاقنان ، وانشئت مشروعات الرى على نطاق البلاد ، لا سيما فى مجرى النهر الاصفر الذى كان مسرحا للفيضان ، وقد ساعد على انجاز هذه المشروعات ظهور المنفاخ المائى الذى استخدم فى المصاهر لصنع الالات الزراعية من الحديد على نطاق اوسع . وفى نفس الوقت حققت الصناعة اليدوية التى شملت نسج الحرير والخزافة وصنع الاوعية الخشبية تقدما ملحوظا فى الكم والنوع . وهكذا شهدت قوى الانتاج فى الهان الشرقية ، واواسطها على وجه التحديد ، تطورا كبيرا بالمقارنة مع سالفتها الغربية . وبالطبع فقد تم ذلك على حساب الشغيلة

الذين حرموا فى معظم الاحيان حتى من الحد الادنى لمكافأة العمل ، واتبع حكام الهان الشرقية مختلف الوسائل لاعتصارهم ، ومن ذلك ما جوى عام ٣٩ بحجة تفتيش السجل السكانى واعادة قياس مساحات الحقول المحروثة فعلا ، حيث ضوعفت الضرائب على الفلاحين .

تدعيم الاتصال بأقاليم الصين الغربية من خلال مطاردة شيونغنو

فى بداية أسرة الهان الشرقية كانت قبائل شيونغنو قد انشطرت الى فرعين جنوبى وشمالى ، انتقل الاول الى المنطقة الممتدة بين المجرى الأوسط للنهر الاصفر وشمال شانشى وشنشى ، وهى أماكن مأهولة بقومية الهان . وأما شيونغنو الشمالية فمكثت فى هضبة منغوليا جاعلة من مناطق الصين الشمالية مسرحا للنهب والتخريب . وقد هيمنت شيونغنو على الكيانات السياسية فى سييوى (أى أقاليم الصين الغربية) وقطعت الاتصال بينها وبين مدن الداخل كما فرضت على سكانها من مختلف القوميات أفدح الضرائب والاتاوات . وللخلاص من سطوة هذه القبائل جرت اتصالات بين دويلات سييوى وحكومة الهان المركزية ، التى كانت مهتمة بتأمين المواصلات على طريق الحرير ، اسفرت عن توجيه قوات ضخمة بقيادة دو قو (؟ — ٨٨) من جيو تشيوان فى مقاطعة قانسو الى سييوى . وقد اكتسحت هذه القوات منطقة أوولو ، جنوبى غرب شينجيانغ ، واعادت اليها الادارة الحكومية . وفى حملة لاحقة عام ٨٩ بقيادة دو شيان تم الاجهاز على شيونغنو الشمالية وانهاء سيطرتها على سييوى بشكل تام . وعلى أثر ذلك أرسلت حكومة الهان الشرقية مبعوثها بان تشاو (٣٢ — ١٠٢) الى سييوى ، حيث بقى ثلاثين سنة عمل خلالها على توثيق وتطوير الاتصالات بين مدن الداخل وتلك البقاع النائية .

ورغبة من حكومة الهان فى الاتصال بأوروبا الرومانية ، اوفد اليها بان تشاو سفيرا من قبله يدعى قان ينغ ، وقد بدأ هذا الموفد رحلة فى طريق الحرير عام ٩٧ انتهت عند الخليج الفارسى حيث عاد ادراجه لعدم استطاعته المواصلة حتى اوربا . وفى عام ١٦٦ ، وصل وفد رومانى الى الصين بحرا ، قدم الى الإمبراطور الصينى هان هوان دى (١٣٢ — ١٧٦) هدية ثمينة من العاج . .

وكانت هذه الزيارة بداية التطور فى العلاقات بين الصين وبلدان أوربا .

على صعيد العلم والثقافة

شهدت اسرة الهان الشرقية نهضة علمية وثقافية شملت مضامير عديدة وتمخضت عن بعض الاختراعات الهامة ، وظهر فى الصين خلال ذلك عديد من العلماء ، والمفكرين قدموا مساهمات مشهورة فى علوم الطبيعة والمجتمع ، ومن ابرز هؤلاء :

تشانغ هنغ (٧٨ - ١٣٩) وهو فلكى ورياضى عظيم اخترع الكرة الحلقية لرصد النجوم ومعرفة مداراتها ، والمهزاز لرصد الزلازل . وقد رصد بنجاح مدهش زلزلة ضربت شرق مقاطعة قانسو . ومن المعروف ان هذا الجهاز لم يظهر فى أوربا الا بعد ١٧٠٠ سنة من اختراعه على يد تشانغ هنغ عام ١٣٢ .

تشانغ تشونغ جينغ (حوالى ١٥٠ - ٢١٩) عالم بالطب الف كتابا فى الامراض تناولها من الناحيتين النظرية والعلاجية وسجل فيه زهاء أربعمائة وصفة . وقد عرف بلقب « الطبيب المقدس » ، ولا تزال نظرياته محور الطب التقليدى فى الصين .

هوا قوه : طبيب متجول فى مقاطعات جيانغسو ، شاندونغ ، خنان وآنهوى . عرف بحذقه فى فروع طبية عديدة لا سيما فى الجراحة والعلاج الوخزى وهو اول طبيب عالج الصداع بالابرة الفضية . وقد اخترع هوا توه مسحوق « مافى » للتخدير وكان يؤخذ من الفم مخلوطا بالخمر . وقد شاع استعمال هذا المخدر بعد ذلك فى كوريا واليابان والبلدان العربية ، وهو يسبق ظهور التخدير فى الغرب بـ ١٦٠٠ سنة . وكان هوا توه يرى ان التمارين البدنية هى احدى العوامل الاساسية فى تعزيز الصحة وقد وضع طقما ، هو الاول من نوعه فى الصين ، من الرياضات العلاجية قلد فيها حركات النمر والايل والدب والقرد والطيور ولذلك عرفت بـ « مصارعة الحيوانات الخمسة » .

وانغ تسونغ (٢٧ - ٩٧ م) مفكر مادى قديم ولد فى أسرة فقيرة وتخرج فى احدى المدارس الامبراطورية فى لويانغ فاشتغل موظفا فى الحكومة المحلية . ثم اعتزل الوظيفة بسبب تبرمه من الوسط الرسمى وعكف من ثم على التعليم والبحث ، فظهرت على يديه سلسلة من الافكار المتقدمة بالقياس الى عصره رد فيها على

الخرافات التى كان يروجها مثقفو السلطة . وقد تصدى لاراء دونغ تشونغ شو القائلة : « ان السماء توحى الى الامبراطور من خلال العاصفة والمطر والغيم والخسوف والكسوف والنيازك » . فاشار الى ان ذلك كله ليس الا ظواهر طبيعية تجرى وفق قوانين الطبيعة . ورد على عقائد البعث والتناسخ فقال ان روح الانسان تفنى بعد الموت ولا يصير جسده الى اكثر من مخصب للارض ! وكان يتساءل : هل رأى احد بعينيه ميتا تحول الى ملاك او جنى ؟ وقد عرض وانغ تسونغ آراءه فى كتاب « لونهنغ » الذى بين فيه العلاقة بين الانسان والطبيعة وبين البدن والروح . وهاجم عقيدة الالاه بين السماء والانسان وغيرها من المعتقدات المثالية . وكان قد اشتغل فى تأليف هذا الكتاب ثلاثين سنة . على ان وانغ تسونغ بقى أسير مرحلته التاريخية فى النظرة العامة للوجود وكان يرى كالمثاليين « ان السماء تقرر كل شئ » مؤكدا من خلالها ايمانه بالقضاء والقدر .

انتفاضة « الشالات الصفر »

فى اواخر هذه الاسرة وقعت السلطة الفعلية بأيدى قرباء الامبراطور ورجال البلاط واصبح الامبراطور فى حكم الدمية . وكان أولئك الممثلون السياسيون لكبار ملاك الاراضى منغمسين فى الترف على حساب االشغيلة ، حيث « تتعفن الخمور واللحوم فى القصور الفاخرة ؛ وعلى الشوارع تتجمد الجثث جرعا وبردا » ، كما يقول شاعر مجهول من تلك الحقبة ولقد حتم ذلك على الجياع ن يشهروا سيوفهم وهم لا يجدون فى بيوتهم ، ان كان لهم بيوت ، ما يأكلونه . . وهكذا هبت الجموع فى وادى اليانغتسى الاوسط والأسفل وشبه جزيرة شاندونغ ضد حكم الهان ، وهى تردد أنشودة استنفار تقول : « ينمو الشعر بعد قصه كالكراث ؛ ويستمر الرأس فى الصياح بعد قطعه كالديك ؛ فلا تخف من الموظفين ولا تستهن بقوة الشعب . . . » قد تزعم هذا التمرد الجماهيرى الواسع النطاق تشانغ جياو (؟ – ١٨٤) من مقاطعة خبى . وكان هذا الرجل قد استحدث دينا جديدا يسمى « تاى بينغ تاو » وبدأ هو وأتباعه دعوتهم فى أوساط الجماهير فى اثناء معالجتهم للفلاحين من الأمراض السارية . وخلال عشرة اعوام من الدعوة انضم اليه مئات الالوف فنظمهم تشا نغ جياو فى ٣٦ وحدة يتراوح اعضاء كل منها بين عشرة الاف وستة الاف . وعلى اثر ذلك تقرر

القيام بانتفاضة شاملة حدد موعدها فى ٥ مارس ١٨٤ . لكن الخطة انكشفت بخيانة احد الاتباع فاعتقل ما يوان يى احد رؤساء الحركة مع حوالى الف من جماعته واعدموا ، مما اضطر تشانغ جياو لتقديم الموعد الى فبراير ، فعبأ جيشه الذى سمى «جيش الشالات الصفر» لان مقاتليه كانوا يتلفعون بها ، وشن هجوما مباغتا ضد المواقع الحكومية انتهى بالاستيلاء على كثير من مدن مقاطعتى خبى وخنان ، ومحاصره العاصمة لويانغ . وردت قوات الحكومية التى كانت خارج العاصمة بهجوم مكثف على جيش «الشالات الصفر فى تخوم مقاطعة خبى ادى فى اول الامر الى تضعضع الثوار ، لكن الفلاحين» قرروا الصمود وبدأت من هنا سلسلة من المعارك المريرة بين الطرفين ، اسفرت عن انتصارات اولية للثوار . وفى هذه الاثناء توفى تشانغ جياو بسبب مرض مفاجىء فتولى القيادة إخوه الاصغر تشانغ ليانغ الذى واصل مهمته فوجه قواته لتسديد ضربات مميتة ضد القوات الحكومية ادت الى شل حركتها . وبدا لذوى الشالات الصفر ان كفتهم قد رجت نهائيا وان العدو لم يعد قادرا على الرد فاخلدوا الى الراحة . وفى بكرة احد الايام بوغتوا بهجوم مضاد اربكهم وادى الى قتل قائدهم تشانغ ليانغ . وبدأت على الاثر جولة جديدة من المعارك استمرت سبعة شهور ، استنفد جيش الانتفاضة خلالها قوته فى مجابهة الضربات الشديدة التى انهالت عليه من قوات الحكومة المدعمة بقوات ملاك الاراضى . وقد انتهت الحرب بهزيمة نهائية لجيش «الشالات الصفر» .

على ان ذلك لم يكن غير نصر موقت لاسرة الهان الشرقية التى تلاشت فى غضون عشرين عاما بعد ان انهكتها الانتفاضة وافقدتها مقومات وجودها .

حقبة التعدد فى الاسر والدويلات المتزامنة

فى أواخر سنى الهان الشرقية ركزت الحكومة جهودها لصد انتفاضات الفلاحين فانشأت جيوشا محلية تشرف عليها السلطات المحلية التى نظمتها بالاندماج مع قوات ملاك الاراضى ، وقد اتاح ذلك للموظفين المحليين أن يضخموا نفوذهم الشخصى ، ويتصرفوا كأمراء حرب ، وبينما كانت الحملات التأديبية ضد الفلاحين قائمة على قدم وساق كان هؤلاء الامراء الجدد يتقاتلون على مناطق النفوذ ، الامر الذى أنزل الخسائر الشديدة بأرواح الشعب وممتلكاته .

الاسر الثلاث

كان يوان شاو (؟ — ٢٠٠) وتساو تساو (١٥٥ — ٢٢٠) ، زعيما أقوى الكيانات العسكرية فى شمال الصين ، يسيطران على المجرى الاوسط والاسفل للنهر الاصفر . وفى عام ١٩٦ اختطف تساو تساو الامبراطور هان شيان دى وجاء به الى شيويتشانغ — خنان ، واخذ يصدر الاوامر باسم الامبراطور المخطوف الى أمراء الحرب الآخرين . وبهذا الابتزاز رجحت كفة تساو تساو على أقرانه . وراح يعمل من هنا لتدعيم حكمه ، فسعى لاحتواء الكفاءات العسكرية والادارية وعنى بالزراعة فنظم المتشردين فى استصلاح الأراضى البور ، ثم استثمارها بالمزارعة التى اتخذت شكلين : مناصفة بين الحكومة والمزارع الذى يستخدم أبقاره فى الحراثة ، او دفع ستة اعشار المنتوج الى الحكومة فى حالة استخدام أبقارها . وحددت الحكومة أماكن معينة لهؤلاء المزارعين منعتهم من الخروج منها . وفى وقت لاحق طبق تساو تساو هذه الخطة على قواته المسلحة .

وبنتيجة ذلك تطور مركزه الاقتصادى فساعد بدوره على توسيع نفوذه وترسيخ سلطته .

فى عام ٢٠٠ بلغ التناحر بين أمراء الحرب فى الشمال ذروته ، فانفجرت المعركة الحاسمة بين تساو تساو ويوان شاو فى قواندو بخنان . وكان لدى يوان قوات متفوقة كثيرا تعد ما يزيد على مائة ألف مقاتل مما جعله يستخف بخصمه ويتراخى فى الاستعداد . وحدث فى اثناء ذلك ان انضم احد مستشارى يوان شاو الى تساو تساو وتقدم اليه بخطة للايقاع بصاحبه بعد ان ارشده الى المواقع الاستراتيجية لقواته . وتبعا لهذه الخطة تسلل جيش تساو المؤلف من خمسة الاف شخص تحت قيادة تساو نفسه الى مؤخرة قوات يوان ، واحرقوا مخازن تموينها لايهامها بوقوع هجوم مباغت من الخلف . وقد اوقع ذلك الارتباك فى صفوف هذه القوات فترك المقاتلون مواقعهم وطاردتهم قوات تساو وابادت اكثر من سبعين ألفا منهم وهرب يوان شاو بعد ان انكشف عنه الجيش تحت حماية ثمانمائة فارس نحو مقاطعة خبى .

بدأ تساو تساو بعد هذا الانتصار الكبير يسعى لتوحيد شمال الصين بابتلاع الكيانات العسكرية الاخرى ، وتم له ذلك فى بضع سنين . وفى عام ٢٠٨ ، زحف بجيش جرار الى الجنوب ، واستولى على بعض أنحاء جينتشو (جزء من مقاطعتى هوبى وهونان حاليا) التى كانت تحت حكم ليو بى (١٦٢ — ٢٢٣) الذى منى بهزيمة ساحقة فانسحب بفلول جيشه البالغ حوالى عشرة الاف الى مدينة أهتشنغ شرق مقاطعة هوبى وقد واصل تساو تساو الذى تجاوزت قواته ٢٠٠ ألف بعد ان اضاف اليها قوات جينغتشو النهرية زحفه نحو الشرق على متون السفن الحربية فى نهر اليانغتسى ، مما حمل ليو بى على توجيه مستشاره الاول تشو قه ليانغ (١٨١ — ٢٣٤) الى سون تشيوان (١٨٢ — ٢٥٢) أمير الحرب الذى كان يهيمن على مناطق الجنوب الممتدة على مجرى اليانغتسى الاسفل ، لاستنهاضه ضد تساو تساو . واسفرت محادثات المستشار عن انشاء جيش مشترك بقيادة تشو يوى (١٧٥ — ٢١٠) القائد العام لقوات سون توجه لمصادمة تساو تساو . والتقى الجمعان فى تشيبى جنوب مقاطعة هوبى . وهنا تقدم هوانغ قاى احد آمرى قوات سون الى القائد العام ليكشف حقيقة ان معظم جنود تساو شماليون لم يعتادوا القتال فى الانهار ولذلك

ربطت سفنهم الحربية بأمراس الحديد لتمنع من الهرب ، واقترح من ثم خطة سهلة لاحراقها . وهو ما حصل . ففي صبيحة يوم عاصف ، انطلقت عشر سفن بارشاد هوانغ قاى نفسه من الضفة الجنوبية لليانغتسى مسرعة باتجاه الرياح نحو الضفة الشمالية ، وكانت السفن محشوة بقش مزيت غطى باقمشة نصبت عليها الاعلام ؛ وجرت خلفها زوارق تحمل المقاتلين . وحين اقتربت من مواقع تساو تساو اوقدت النيران فيها وهى لا تزال مندفعة بقوة الريح حتى اصطدمت بسفنه فاشعلتها . ومع اندلاع النيران فى سفن تساو وشنت القوات المتحالفة هجوما مركزا على قواته فمزقتها وهرب تساو بفلول جيشه عائدا الى الشمال .

بسط سون تشيوان بعد معركة تشيبى سلطانه على مجرى اليانغتسى الاوسط والاسفل . واخذ ليو بى معظم اجزاء مقاطعتى هوبى وهونان ثم سيتشوان . أما تساو تساو فاحتفظ بمناطق نفوذه فى البقاع الشاسعة حول مجرى النهر الاصفر . وفى عام ٢٢٠ توج تساوبى (١٨٧ – ٢٢٦) ابن تساو تساو نفسه امبراطورا بعد نفى هان شيان دى – آخر اباطرة الهان الشرقية معلنا قيام أسرة وى التى اتخذت من لويانغ عاصمة لها . وفى العام التالى اعلن ليو بى امبراطورا معلنا قيام أسرة شو وجعل عاصمتها فى تشنغدو . ثم حذا سون تشيوان حذوه فأسس أسرة وو عام ٢٢٢ التى اتخذت مدينة أهتشنغ عاصمة لهاأولا ، ثم انتقلت الى نانجينغ بجيانغسو . وهكذا تأسست ثلاث أسر تمثل ثلاث امبراطوريات فى وقت واحد وانتهت بذلك حروب امراء الحرب التى استهلكت السنوات الاخيرة من حكم الهان الشرقية .

انهاض الاقتصاد

واصلت أسرة وى أسلوب تساو تساو فى الزراعة ، وأنشأت علاوة على ذلك شبكات رى على جانبى هوايخه وقد ظهرت فى غضون ذلك اداة سقى جديدة تستطيع ايصال الماء الى المزارع على المرتفعات . وفى أسرة شو شغلت قضية الانتاج الزراعى اهتمام الوزير الاول تشو قه ليانغ ، فاقام هيئة رسمية لادارة شؤون صيانة وترميم سدود دوجيانغيان بالقرب من تشنغدو ، لارواء حقول غرب سيتشوان على مدار السنة . وكانت صناعة الحرير تحتل مكانة هامة فى تجارة شو مع الاسرتين الاخريين .

كان جنوب سيتشوان وبعض الاجزاء من قويتشو ويوننان مأهولة بالاقليات القومية ، فعين تشو قه ليانغ فى ادارتها المحلية موظفين من زعماء القبائل والهانيين . وعنى بتطوير الثقافة والاخذ باسباب المدنية من خلال تجديد تقنيات الانتاج القديمة وتعزيز قوى الانتاج ... مما ادخل هذه المناطق النائية فى دائرة التطور الحضارى والسياسى لعموم الصين .

فى أيام الاقتتال بين أمراء الحرب ، نزح الفلاحون بأعداد طائلة عن مجرى النهر الاصفر الى جنوب اليانغتسى ، وفى نفس الوقت كانت اعداد غفيرة من ابناء الاقليات القومية تنزح عن قبائلها لتستوطن فى السهول . وقد وفر كل ذلك المطلوب من الايدى العاملة لدعم الانتاج الزراعى الذى بدأ يعتمد على الوسائل المتقدمة المأخوذة من الشمال ، وفى الحقبة نفسها شهدت صناعة السفن تطورا ملحوظا ، فبنيت السفن الحربية الضخمة التى تتسع لثلاثة آلاف مقاتل ، والمراكب الفاخرة ذات الخمسة طوابق كما تطورت الاساطيل التجارية والحربية وقد وصل تايوان عام ٢٣٠ اسطول من اسرة وويحمل عشرة الاف شخص فى زيارة ودية لتوطيد الصلات بين تايوان والمنطقة الساحلية فى الجنوب الشرقى .

أسرة جين الغربية

فى عام ٢٦٣ ابتلعت أسرة وى ، اقوى الاسر الثلاث ، اسرة شو . ثم انتزع سى ما يان (٢٣٦ — ٢٩٠) وزير أسرة وى الاول سلطتها العليا حيث أقام أسرة جين التى سميت « جين الغربية » . وبعد ١٥ سنة من ذلك (عام ٢٨٠) اسقط سى ما يان أسرة وو فوحد الصين .

واعلن سى ما يات الذى اصبح الامبراطور « جين وو دى» سياسة زراعية جديدة تقضى بتوزيع الحقول على الفلاحين لقاء تسليم ضريبة سنوية معلومة مع السخرة للحكومة فى الاشغال التى تحددها .

وكان الامبراطور الجديد قد انعم على ٢٧ من اقربائه بلقب امير واقطعهم بعض المحافظات والولايات ، وخولهم حق تنظيم القوات المسلحة وتعيين الموظفين من مختلف المستويات فى مناطق نفوذهم . ولم يكد سى ما يان يموت حتى انفجرت الحرب بين هؤلاء الامراء للاستيلاء على السلطة المركزية ، فعاد الشعب

الشغيل يعانى من ويلات الحرب وتعرضت وحدة البلاد لخطر انقسام جديد .

فى تلك السنوات كانت قوميات شيونغنو وجيه ودى وتشيانغ وشيانبه تقيم فى مناطق الحدود الغربية والشمالية . وكان شطر من هؤلاء البداة قد استقر منذ أسرة الهان الشرقية فى مناطق الداخل . وفى أواخرها تحركت بطون من قومية شيانبه نحو جنوب السور العظيم او جنوب النهر الاصفر ، وغادرت بطون اخرى من قومية دى جنوب قانسو الشرقى الى شرق شنشى وقانسو . وكذلك فعلت قومية تشيانغ التى انتقل بعضها الى نفس المنطقة . وحتى بداية أسرة جين الغربية . كان عدد ابناء الاقليات فى مناطق الداخل حوالى مليون نسمة ، وقد حافظ هؤلاء النازحون على تنظيماتهم واعرافهم ولهجاتهم ، وخضعوا خلال ذلك لعسف الحكام الذين فرضوا عليهم الضرائب الفادحة واجبروهم على الخدمة العسكرية ، فالقوا بالكثير منهم فى متاهات التشرد . ولما حاولت حكومة جين ارغام المتشردين على العودة لاراضيهم استمهلوها حتى الحصاد اذ كان الكثير منهم قد دخل فى عقود مزارعة مع ملاك الاراضى لكنها رفضت امهالهم واخذت تطاردهم لاخراجهم من مزارعهم بالقوة . فردوا على هذا الايغال فى الاضطهاد بانتفاضة مسلحة تحت قيادة لى ته من قومية دى فى مياتشو بسيتشوان ، ثم تبعهم متشردو مناطق نهر اليانغتسى ، وسرعان ما اكتسحت العاصفة الثورية بقاعا شاسعة من الصين لتضع دولة جين أمام تحديات عجزت عن مجابهتها .

وقد اغتنمت شيونغنو (قبائل الهون البدوية) هذه الفرصة فتحركت من جنوب شانشى واستولت على لويانغ ثم تشانغآن عام ٣١٦ حيث اسرت الامبراطور وانهت حكم أسرة جين الغربية .

ظهور جين الشرقية و١٦ دويلة

عام ٣١٧ اقام سى ما روى (٢٧٦ — ٣٢٢) احد اقرباء امباطور جين اسرة جديدة ، اتخذت من مدينة نانجينغ بجيانغسو عاصمة لها وعرفت باسم أسرة جين الشرقية .

خلال اكثر من ١٣٠ سنة عقب زوال جين الغربية ، أنشأ الحكام الشماليون من مختلف القوميات عديدا من الدويلات فى مناطق مجرى النهر الاصفر منها ١٥ دويلة رئيسية . وقد عرفت هذه الدويلات فى التاريخ بالدويلات

الست عشرة ، مع اضافة أسرة تشنغ التى كانت قائمة فى الجنوب الغربى .

وفى أواخر القرن الرابع ، انجزت أسرة تشيانتشين التى أسسها ارستقراطيو قومية دى توحيد مناطق النهر الاصفر . وفى عام ٣٨٢ وضعت خطة للهجوم على جين الشرقية على يد فوجيان (٣٣٧ – ٣٨٥) أمير تشيانتشين نفذت فى السنة التالية بقوات نهرية وبرية ، توجهت من تشانغآن وقد تصدت قوات جين الشرقية للهجوم بقيادة شيه شي (٣٢٧ – ٣٨٨) وشيه شيوان (٣٤٣ – ٣٨٨) . وحدثت المعركة الحاسمة فى نهر فيشوى بآنهوى . ورغم التفوق التام لقوات تشيانتشين فقد هزمت فى النهاية بفضل قيادة شيه شيوان الذى دبر خطة بارعة للايقاع بالعدو على الوجه التالى : كانت قوات فوجيان تقف على الضفة الشمالية للنهر فطلب شيه شيوان من فوجيان سحب قواته الى الوراء حتى يكون بينهما مجال للاشتباك . . ووافق الاخير على ان يشن هجوما مباغتا ضد القوات اثناء عبورها . ولكن ما ان بدأت قوات فوجيان بالتحرك الى الخلف حتى ظن جنوده انهم هزموا ، ومما عزز هذا الهاجس فى صفوفهم صراخ مباغت من احد الرجال : انهزمنا . . واختلت صفوف الجيش واخذ الجنود بالفرار فطاردتهم قوات جين وقضت على الكثير منهم . وسقط فى يد فوجيان فجمع فلوله وكر راجعا الى الشمال .

وقد انهارت أسرة تشيانتشين بعد ذلك الهزيمة بوقت قليل ، وعاد الوضع فى اقاليم الشمال الى ما كان عليه .

الاسر « الجنوبية » و« الشمالية »

فى عام ٤٢٠ توج ليو يوى احد زعماء قوات أسرة جين الشرقية (٣٢٥ — ٤٢٢ م) نفسه امبراطورا عقب نفى امبراطور أسرة جين الشرقية ، معلنا بذلك قيام أسرة سونغ (٤٢٠ — ٤٧٩) . وفى المئة وستين سنة التى تلت تأسيسها ظهرت على التوالى أسر ثلاث غيرها ، هى أسرة تشى (٤٧٩ — ٥٠٢) وأسرة ليانغ (٥٠٢ — ٥٥٧) وأسرة تشن (٥٥٧ — ٥٨٩) ، وسميت هذه الاسر الاربع التى انحصر نفوذها فى جنوب الصين « الاسر الجنوبية » فى تاريخ الصين . وفى الوقت نفسه نهضت قبيلة توه با من قومية شيانبى فى غربى منغوليا الداخلية وشمال شانشى ، واقامت أسرة وى الشمالية (٣٨٦ — ٥٣٤) ، ثم وحدت وادى النهر الاصفر عام ٤٣٩ ، مما انهى وضع السلطات المنفصلة الذى ظل يسود شمال الصين منذ سقوط أسرة تشين . وفى وقت لاحق ، انشطرت أسرة وى الشمالية الى فرعين : وى الشرقية (٥٣٤ — ٥٥٠) ووى الغربية (٥٣٥ — ٥٥٧) ، بيد ان هذا الوضع لم يبق طويلا حتى حلت أسرة تشى الشمالية (٥٥٠ — ٥٧٧) محل وى الشرقية ، وكذلك تبدلت وى الغربية بأسرة تشو الشمالية (٥٥٧ — ٥٨١) ، التى ابتلعت تشى الشمالية فى نهاية الامر . وعرفت هذه الاسر الخمس التى ظهرت بالتتابع فى مناطق الصين الشمالية باسم « الاسر الشمالية » .

الاقتصاد فى جنوب نهر اليانغتسى

كان الانتاج الاجتماعى فى مناطق جنوب نهر اليانغتسى فى عصور « الممالك الثلاث » متخلفا عنه فى حوض النهر الاصفر ، اذ كانت هناك أراض واسعة لم تستصلح بعد ، وكان مردود الانتاج الزراعى قليلا . وفى أيام الاقتتال الذى جرى بين أمراء الحرب فى أواخر عهد أسرة جين الغربية ، نزح الفلاحون بأعداد كبيرة من مجرى النهر الاصفر الى جنوب نهر اليانغتسى ، فوفر ذلك المطلوب

من الايدى العاملة لدعم الانتاج الزراعى الذى بدأ يعتمد على الوسائل المتقدمة المأخوذة من الشمال . واستصلحت رقع فسيحة من الاراضى البور ، ثم تزودت بمشروعات الرى . أضف الى ذلك ، تعمم استعمال الابقار فى الحراثة . كما توفر ما لزم تطوير الانتاج الزراعى ، وأخذت بعض المناطق تزرع محصولين فى العام الواحد .

حين حل عهد « الاسر الجنوبية » شملت عملية الاستثمار جنوب جيانغسو ، وتشجيانغ ، وجيانغشى ، وهوبى ، وهونان . اما فوجيان وقوانغدونغ وقوانغشى فكانت متأخرة فى الاستثمار . وفى أواخر عهد « الاسر الجنوبية » كان سكان تلك المناطق الجبلية قد احتكوا كثيرا بالسكان فى المناطق المجاورة ، وازدادت التعاملات بين القوميات المختلفة وسرعة اندماجها ، مما أدى الى تطور الزراعة . وفى تلك الحقبة تركز ملاك الاراضى الكبار فى جنوب جيانغسو وتشجيانغ ، وظهر الغنى الى حد ان انتشرت املاك وأراضى أحدهم فى بعض الاحيان فى محافظات عديدة . اما الفلاحون الذين لم يملكوا أرضا فاضطروا الى استئجار الاراضى من ملاك الاراضى ، وكانوا يقدمون اكثر من نصف محصولاتهم الى ملاك الاراضى . وكان لا يسمح للفلاحين بمغادرة الاراضى المستأجرة ، بينما يمكن لملاك الاراضى ان يهدوا او يعطوا أراضيهم لأى شخص آخر ، كما يحلو لهم .

الطبقة الحاكمة

انقسمت طبقة ملاك الاراضى منذ عهد أسرتى وى وجين الى قسمين ، النبلاء وعامة الشعب . وشهد هذا النظام فى عهد أسرة جين الشرقية تطورا كبيرا . كانت أسر النبلاء تحتل مكانة عالية فى السياسة ، واستأثرت بمساحة واسعة من الاراضى والايدى العاملة . كان المنحدرون من أسر النبلاء يتقاسمون الحقوق السياسية حسب نسبهم وتولوا جميع المناصب الحكومية الهامة أبا عن جد . اما من يأتون من العامة فلم يكن امامهم الا الوظائف العادية باستثناء من سجلوا مآثر عسكرية .

كانت أسر النبلاء تهتم بنسبها وهوياتها من اجل المحافظة على مراكزها الاجتماعية ، اذ فرضت على أبنائها قيودا صارمة : منع الزواج من عامة الشعب أو الجلوس معهم او ارتداء الملابس المشابهة لملابسهم او حتى التعامل معهم .

وكان أولئك الارستقراطيون غارقين فى الترف والتبذير ، فشكلوا طبقة طفيلية فى المجتمع . ثم أخذت سلطة أسر النبلاء ، بدءا من أواخر سنى « الاسر الجنوبية »، تسير على طريق الانحدار ، مما اتاح للاسر العامة ان تمسك بزمام السلطة من يدها .

اندماج القوميات المختلفة

بعد ان وحدت أسرة وى الشمالية مناطق النهر الاصفر ، بدأ السواد الاعظم من أهل الاقليات القومية يتحولون من الحياة المتبدية الى حلبة الانتاج الزراعى ومن هنا تعلم ابناء قومية هان منهم تربية المواشى . وقد ازدادت التعاملات والصلات بين ابناء القوميات المختلفة فى مقاومة اضطهاد واستغلال حكامهم .

وتجاه وضع اندماج القوميات قبل حكام أسرة وى الشمالية اقتراحات ملاك الأراضى من قومية هان وقاموا باصلاحات .

وفى سنة ٤٨٥ اعلن الامبراطور شياو ون من أسرة وى الشمالية قانون توزيع الحقول لضمان دخله المالى . ينص القانون على توزيع الرقع الصالحة للزراعة على كل رجل وامرأة (للرجل ضعف نصيب المرأة) ، وتوزيع حقول التوت على الرجل ، وفى المناطق التى لا ينمو فيها التوت يمكن توزيع حقول الكتان على الرجل والمرأة . ووفقا للقانون يجب على كل زوجين ان يدفعا ضريبة الارض الزراعية والحرير أو القماش الى الحكومة سنويا ، ويتمتع الخلف بالحق فى توارث مزارع التوت عن أسلافهم ، اما حقول الزراعة والكتان فتسترجعها الحكومة اذا تقاعد صاحبها او مات . ويفرض على الرجال ان يؤدوا الخدمة العسكرية. ورغم هذه الاعباء فقد جلب النظام الجديد بعض التحسن لمعيشة الكادحين فى شمال الصين على اساس التطور الاقتصادى .

كما اتخذ الامبراطور شياو ون سلسلة من التدابير الرامية الى تعجيل عجلة التطور الاجتماعى : انتقال عاصمته الى لويانغ — المدينة المشهورة بتاريخها العريق — فى عام ٤٩٤ م ، وذلك للاستفادة من ثقافة قومية هان المتقدمة وتدعيم الاتصالات بكبار ملاك الاراضى من قومية هان فى وادى النهر الاصفر . ثم طلب هذا الامبراطور اضافة الى ما ذكرنا سابقا من ارستقراطى قومية شيانبى ان يتخذوا اسماء العائلات الهانية ، ويتزوجوا معها ، ويرتدوا الثياب الهانية

النمط ، وان يتكلموا بلهجة قومية هان . والاهم من هذا كانت سلطة وى الشمالية تتبع ما طبقته الطبقة الحاكمة لقومية هان من الانظمة السياسية .

ومما لا ريب فيه ان ما قام به الامبراطور شياو ون من الاصلاحات سارع فى دخول الاقليات القومية فى النظام الاقطاعى واندماج القوميات المختلفة فى شمال الصين .

الانتفاضة فى شمال الصين

يرتبط تطور الاقتصاد الاجتماعى بتضخم نفوذ ملاك الاراضى فى أسرة وى الشمالية ، فلم يستطع القانون الجديد لتوزيع الاراضى منع الاتجار فى الاراضى والاستلاء عليها . وكان عدد ملاك الاراضى الذين يمتلكون الاراضى الخصبة بمساحات هائلة فى ازدياد مطرد ، وكان هؤلاء الطفيليون غارقين فى حياة الفساد على حساب عرق ودم الشغيلة .

وقد اقامت هذه الاسرة الملكية بعض المنشآت العسكرية فى حدودها الشمالية ، وخصصت جيشا جرارا يرابط فى داخلها . ولكن كان زعماء قوات التخوم يسعون الى الاستلاء على الاراضى الخصبة ، ويستعبدون جنودهم ، ويختلسون العتاد العسكرى . وكانت حياة الجنود شاقة لا تطاق . وفى عام ٥٢٣ اندلعت انتفاضات ابناء الشعب والجنود من شتى القوميات ، سرعان ما اكتسحت مناطق الحدود الشمالية وشمال سور الصين العظيم حتى مناطق شنشى وقانسو ونينغشيا . ولكن الانتفاضات اسفرت عن الفشل بعد ان دامت سنتين بسبب عدم مقدرتها فى مقاتلة العدو الذى يفوقها عدة وعددا .

وللحيلولة دون انتفاضة جديدة كان حكام أسرة وى الشمالية يحاولون تهجير المتمردين الاسرى البالغ عددهم مئتى الف الى كل ارجاء خبى ، ولكن الامر لم يسر كما كان متوقعا . ففى اغسطس عام ٥٢٥ انفجرت من جديد انتفاضة خاضها هؤلاء المضطهدون بالمشاركة مع الاهالى فى شانغقو (يانتشينغ الحالية فى ضاحية بكين) ، واحتلت قوات الانتفاضة بعض المحافظات والولايات المجاورة .

ولم تمض على ذلك الا ثلاث سنوات حتى ازداد عدد جيش الانتفاضة الى مئات الالوف . وقد انزلت الانتفاضة الشعبية ، رغم انها لم تنجح ، ضربات

مبرحة بحكم الارستقراطيين من قومية شيانبى ، وكذلك اضعفت نفوذ ملاك الاراضى من قومية هان وزلزلت اركان حكم أسرة وى الشمالية التى اصبحت بعد ذلك أثرا بعد عين . ان هذه الانتفاضة عززت العلاقة الكفاحية بين ابناء مختلف القوميات ، وزادت من سرعة اندماجها فى الحضارة .

الثقافة فى عهود « الممالك الثلاث » واسرتى جين الغربية والشرقية والاسر الجنوبية والشمالية

شهدت الصين فى هذه الحقبة التى تغطى عهود الممالك الثلاث واسرتى جين الغربية والشرقية والاسر الجنوبية والشمالية تطورا فى الاندماج الاجتماعى والثقافة والعلوم بفضل اندماج القوميات المختلفة وتعميم الزراعة من شمال الصين الى جنوب نهر اليانغتسى وجهود ابناء القوميات المختلفة .

الرياضيات

يعتبر تسو تشونغ تشى (٤٢٩ — ٥٠٠) رياضيا كبيرا فى تاريخ الصين ، وقد قدم مساهمات فى مجالات علم الفلك والتقويم والميكانيكا . واكبر ما قدمه من مساهمات فى العلوم هو ايجاد النسبة التقريبية لمحيط الدائرة (ط) .

وقد اولى علماء الرياضيات الصينيون اهتماما كبيرا بالعلاقة بين محيط الدائرة وقطرها ، وقام كثير منهم بالدراسات حول هذا الموضوع . وفى عهد الممالك الثلاث توصل العالم ليو هوى الى رقم ١٤١٦ر٣ وهو ادق رقم فى عصره . وعلى هذا الاساس توصل تسو تشونغ تشى فيما بعد الى رقم اكثر دقة : بين ١٤١٥٩٢٦ر٣ — ١٤١٥٩٢٧ر٣ ، وهو اول عالم فى تاريخ العالم توصل الى سبعة ارقام عشرية فى حساب النسبة التقريبية المذكورة . وذلك سبق ما

توصل اليه علماء اوربا من نفس النتيجة بالف ومئة سنة . استمر كتاب « تشويشو » فى الرياضيات ، الذى الفه تسو تشونغ تشى يستخدم مادة تعليمية طوال عهد اسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧) بالصين ، وكذلك فى اليابان وكوريا فى العصور الوسطى .

كان جيا سى شيه عالما زراعيا بارزا ، قام بالدراسات المستفيضة لكمية كبيرة من المعلومات والمأثورات الشعبية عن الزراعة ، كما قام باستقصاءات وبحوث ميدانية مع الفلاحين الكبار فى السن والمشتغلين بالزراعة فى ايامه ، وكتب كتابا بعنوان « تشيمين ياوشو » حول الزراعة بين عام ٥٣٣ – ٥٤٤ ، يقع فى عشرة اجزاء من ٩٢ فصلا ، ويعالج تقريبا كل موضوع عرف عن الزراعة : انتقاء البذور ونقعها واستخدام السماد والمناوبة بين المحاصيل وزراعة المحاصيل المتنوعة كالخضروات والفواكه والاشجار الاخرى ، وتربية الحيوانات الأليفة والطيور . كما يتطرق الكتاب الى تربية الاسماك وصنع النبيذ ومعالجة المنتجات الزراعية . وأكد المؤلف على انه يجب مراعاة القانون الطبيعى اذا ما اراد المرء الحصول على محصول افضل بمجهود اقل . ويجب ان تلائم المحاصيل الظروف المحلية ، وان تؤدى الاعمال الزراعية فى وقتها الصحيح . ودعا المؤلف الى تحسين التقنية والادوات الزراعية . كما لخص المؤلف تجارب القوميات المتبدية فى شمال الصين فى تربية المواشى ، وحفظ بذلك كثيرا من المعلومات القيمة فى هذا المجال .

ان كتاب « تشيمين ياوشو » اقدم ما حفظته الصين حتى اليوم من كتب الزراعة ، كما انه من اقدم واكبر الكتب فى تاريخ الزراعة العالمى .

الجغرافيا

كان لى دو يوان (٤٦٦ او ٤٧٢ – ٥٢٧) عالما بارزا فى الجغرافيا فى الصين القديمة ، دون ملاحظات على كتاب « شوى جينغ » الذى تم تأليفه فى أواخر عهد أسرة هان الشرقية ، والذى يصف بايجاز ١٣٧ نهرا ، منها نهر اليانغتسى والنهر الاصفر . وذلك على اساس متابعته للمظاهر الجغرافية ومراجعته لما سجلته الكتب القديمة . وقد اضاف العالم لى دو يوان الى « شوى جينغ » معلومات كثيرة وسجل تفاصيل شاملة لاكثر من الف نهير وقناة رى ، واطلق

على ملاحظاته عنوان « ملاحظات شوى جينغ » الباقية حتى اليوم .

تقع « ملاحظات شوى جينغ » فى ٤٠ جزءا من ٣٠٠ الف كلمة . راجع المؤلف فى ملاحظاته اكثر من ٤٠٠ نوع من الكتب التاريخية والسجلات القديمة ، ويصف فيها بدقة توزيع الانهار والقنوات والبيئة الطبيعية والمنتجات المحلية والاماكن الأثرية والسياحية والتغيرات الجغرافية التى طرأت على الصين فى الازمنة القديمة والاساطير التاريخية . وفيها بعض المعلومات عن احتياطيات المعادن وآبار الملح والينابيع الحارة والبراكين . وهو بحق يعتبر اهم مرجع قديم حول الجغرافيا ولا يزال مفيدا كمرجع فى تخطيط مشروعات خزانات المياه واكتشاف الموارد . وتعود شهرة الكتاب ايضا الى اسلوبه الرائع ، فهو مؤلف ادبى عظيم الاهمية .

البوذية ونظرية « فناء الروح »

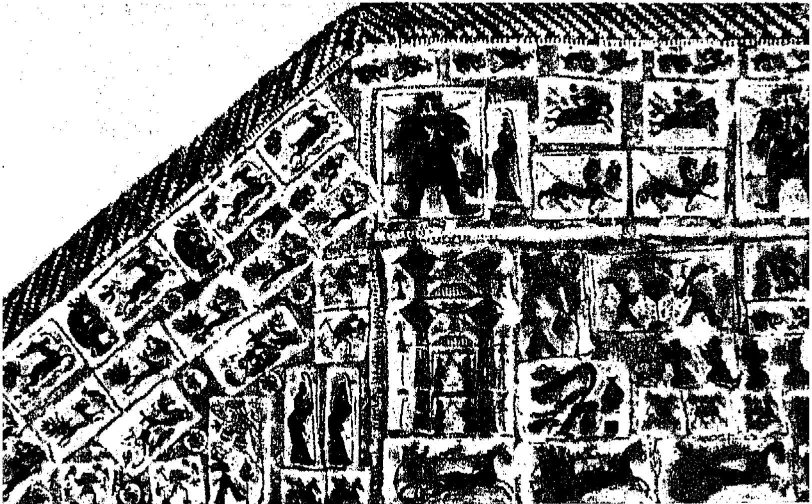
شهدت البوذية فى أواخر عهد أسرة هان الغربية انتشارا فى الأسر الشمالية والجنوبية (٤٢٠ — ٥٨١) ، اذ اعتنقها كثير من الاباطرة والوزراء الذين بنوا عددا كبيرا من الاديرة فى مناطق مختلفة ، حيث عدد كبير من الرهبان والراهبات . كانت البوذية تحتل مكانة عالية فى السياسة . وفى عام ٣٩٩ انطلق الراهب فاشيان من تشانغآن (شيآن الحالية) الى شمال الهند ثم الى سيلان عن طريق وسط الهند ، مرورا بـ « المنطقة الغربية » (منطقة غرب يومنقوان فى عهد أسرة هان ، وتضم شينجيانغ وآسيا الوسطى الحالية) . وبعد ذلك عاد الى الصين عن طريق البحر . وفى عام ٤١٣ وصل الى تشانغآن عاصمة أسرة جين وقتذاك . وقد ترجم كتبا بوذية مقدسة كثيرة ، والف كتابا بعنوان « البلدان البوذية » الذى يعتبر عملا هاما لدراسة تاريخ « المنطقة الغربية » والهند فى ذلك العهد .

وفى تلك الحقبة كان عدد غير قليل من الناس يعارضون البوذية ، اشهرهم فان تشين (حوالى ٤٥٠ — ٥١٥) ، وهو فيلسوف مادى بارز . تؤمن البوذية بفناء الجسد وخلود الروح والتناسخ ، فاذا كان الانسان يتحمل الحياة البائسة ويؤمن ببوذا كل الايمان ويتصدق بأملاكه على الاديرة استطاع ان يحيا حياة سعيدة فى الحياة الاخرى . وتجاه رأى البوذية الباطل كتب فان تشين مقالة مشهورة

اسرة هان الشرقية الملكية



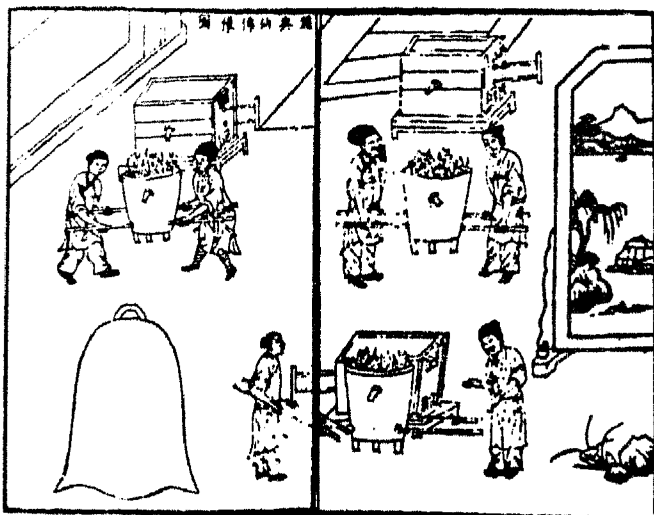
صورة ليو بان أول الاباطرة فى أسرة هان (٢٠٦ ق . م — ٢٥ م)



نسخة من الرسوم المزخرفة للطوب المجوف . .
اكتشفت فى قبر هان فى تشنغتشو بخنان



رسوم حريرية فى عهد أسرة هان الغربية (الى اليسار) . والى جانبها الايمن رسوم مقلدة لها . كانت مدفونة فى جبل العصفور الذهبى . مقاطعة شاندونغ



رسوم توضح عمليات الصهر

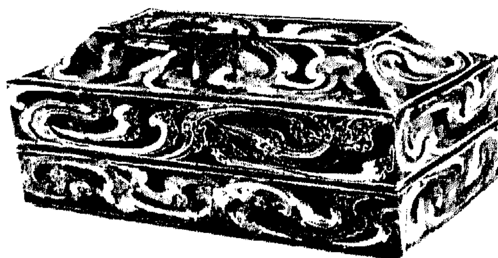


أدوات حديدية فى عهد اسرة هان الغربية منها مرجل . . مجرفة . . معول . . شظايا وعاء . . يد هاون . . معزقة . . محراث . .

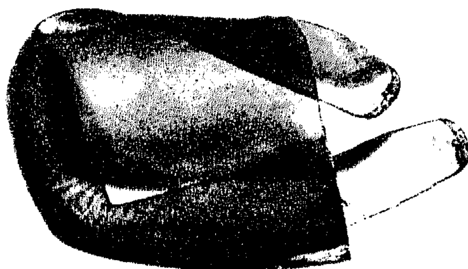


لوحة تظهر حالة صهر الحديد

موقع أثرى من ترسانة فى الفترة ما بين أسرتى تشين وهان



قبعة حريرية مع علبتها المطلية باللك .. اكتشفت فى قبر هان رقم ٣ فى ماوانغدوى بمدينة تشا نغشا .. هونان





اكفان يشمية محاكة بخيوط الذهب . . كل كفن من اكثر من ٢٠٠٠ شريحة يشمية . . عثر عليها فى مانغتشنغ — خبى . . ترى فى الصورة اثنين من المنتوجات المقلدة لها



رسم مقلد لجداريات دونهوانغ . . يظهر مشهدا من رحلة
تشانغ تشيان الى المناطق الغربية

قبر هوه تشيوى بينغ ـــ احد القادة العسكريين المشهورين فى أسرة هان
الشرقية . محافظة شنبينغ بمقاطعة شنشى

اسرة هان الغربية الملكية

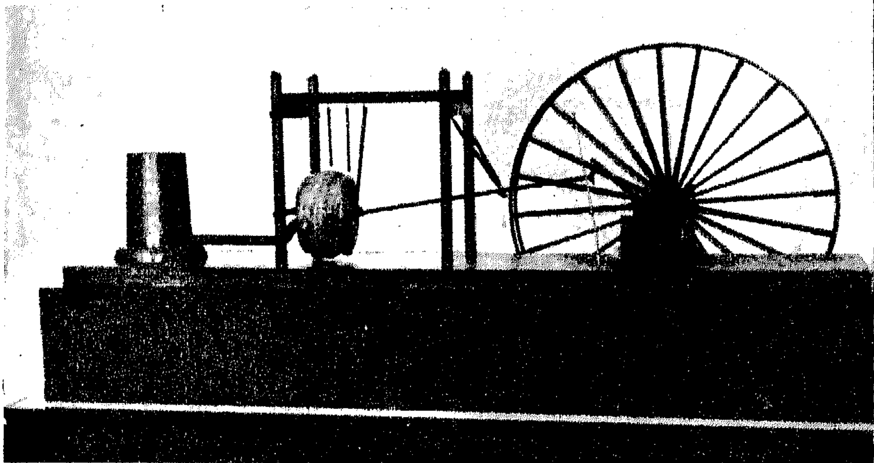
حرث الارض (نقش حجرى)

رسوم الرقص والموسيقى مزركشة على وجوه الطوب . . اكتشفت فى قبر هان الشرقية فى تشنغدو — سيتشوان





جدارية منقوشة تظهر مشهدا من جمع اتاوة الحبوب
ن المزارعين . . اكتشفت فى قبر هان بمحافظة
ى — خنان

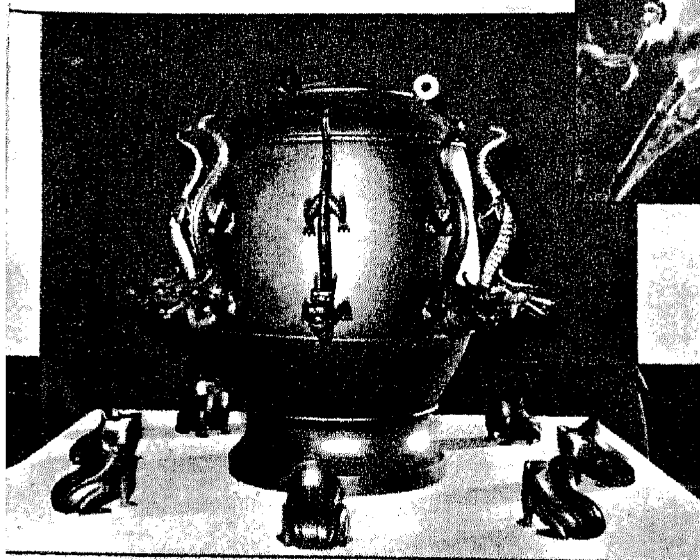


ذج من التوربين المائى الذى كان يستخدم فى صناعة
ـهر فى عهد أسرة هان الشرقية



صورة هوا توه ـــ الطبيب المعروف فى عهد الممالك الثلاث





تشانغ هنغ ـــ مع مخترعه .. مرسمة زلزالية



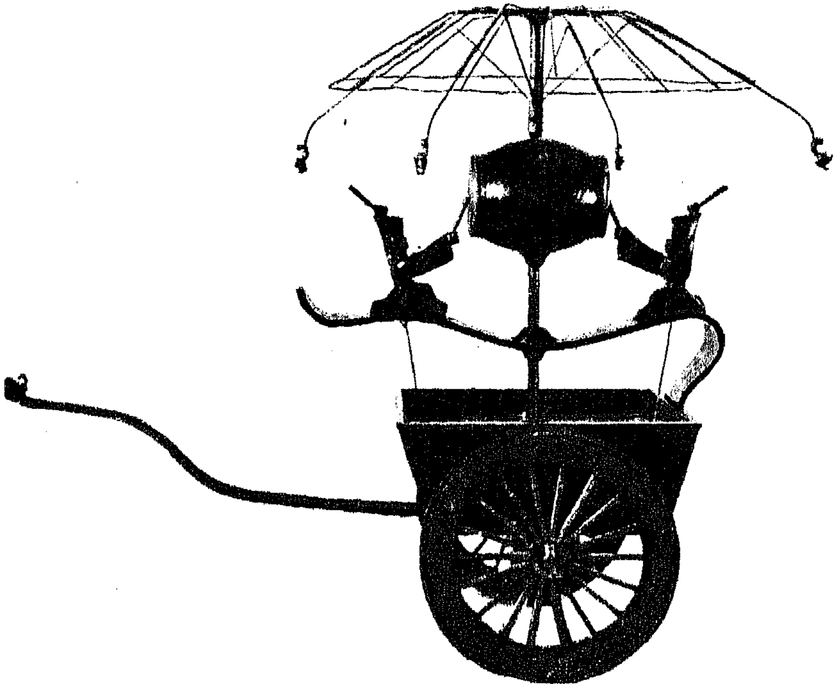
حصان برونزى مع طير تنين يعود لعهد اسرة هان الشرقية . . اكتشف فى ليتاى بمحافظة وو وى فى مقاطعة قانسو

راقص .. مغن



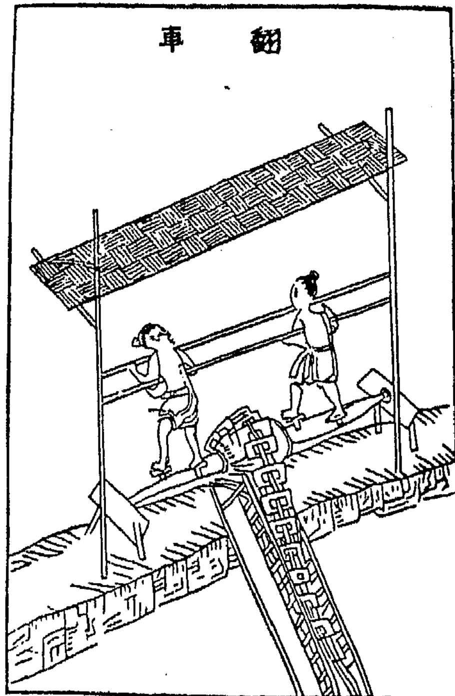
الممالك الثلاث واسرة جين الشرقية

عربة لقياس المسافة التلقائى . . كلما قطع نصف كيلومتر طرق انسان خشبي الطبل طرقة واحدة يجرها حصانان ، فى أسرة جين



طوبة عليها صورة حصان مع السائس . . فى أسرة جين (٢٦٥ — ٤٢٠)
من مطمورات قرية شيوى بمحا فظة دلغ مقاطعة خنان





ناعورة فى عهد الممالك الثلاث — أسرة جين الشرقية



الجداريات تعكس حياة احد الارستقراطيين فى أسرة جين الشرقية . .

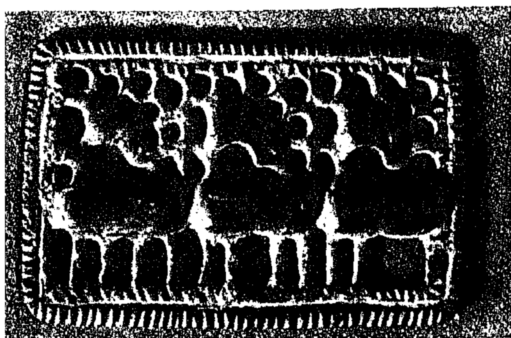
عربة خزفية مع بقرة خزفية فى عهد اسرة تشى الشمالية . . من قبر تشانغ شيار فى تاييوان بمقاطعة شانشى



عازفة من قبر اسرة .وى الشمالية . . مدينة شيآن ، . شنشى



ختم الامبراطور النحاسى . . اكتشف فى قبر قومية شيانبه . . من محافظة تومته ـــ منغوليا الداخلية



لوحة نحاسية عليها تصاميم ثلاثة أيائل



جرة خزفية اكتشفت فى قبر من مقبرة فى أسرة الجنوب . . من ماتشان ـــ بينغبا ـــ قويتشو

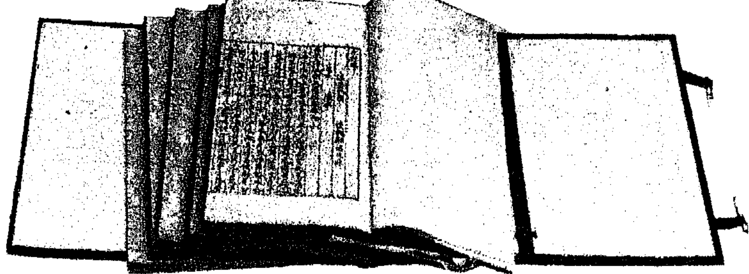


تمثال سو تشون تشى الرياضى العظيم



جزء من رسوم « نزول الاهة لوه الى الدنيا » — مقلدة . . أصلها بريشة قوكاى تشى وقسم من رسوم « مجموعة من مسئولات البلاط الامبراطورى »



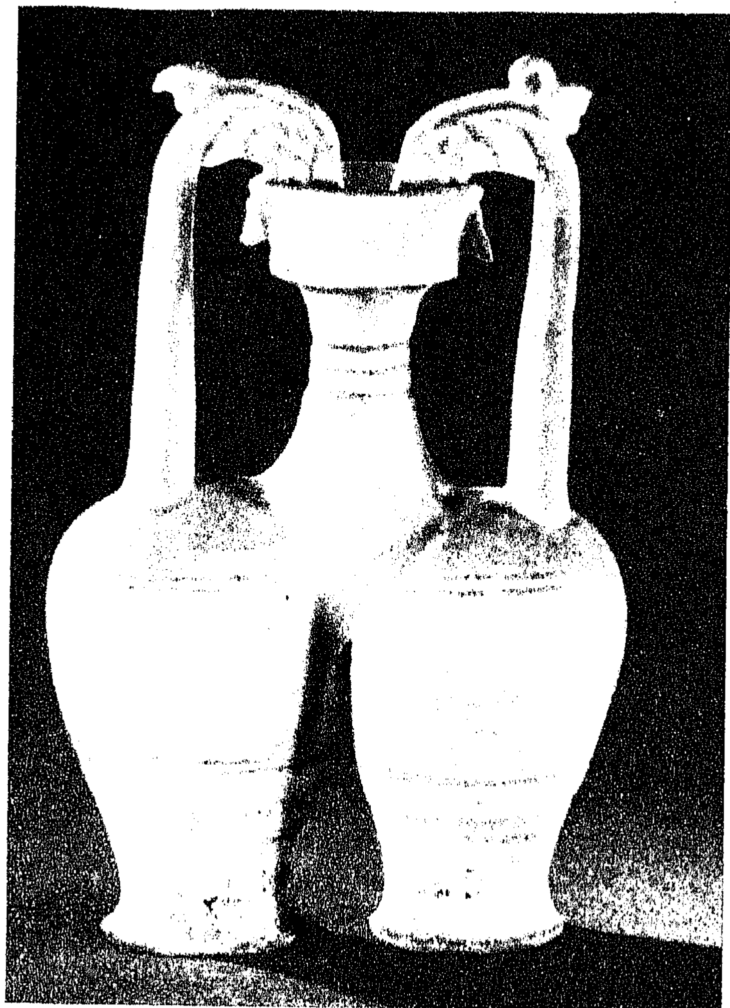


المجلد الحادى عشر من مؤلفات « مجا رى المياه » التى كتبها لى داو يوان
فى اسرة وى الشمالية

منظر داخل الكهف ـــ ٦ فى كهوف يونقان

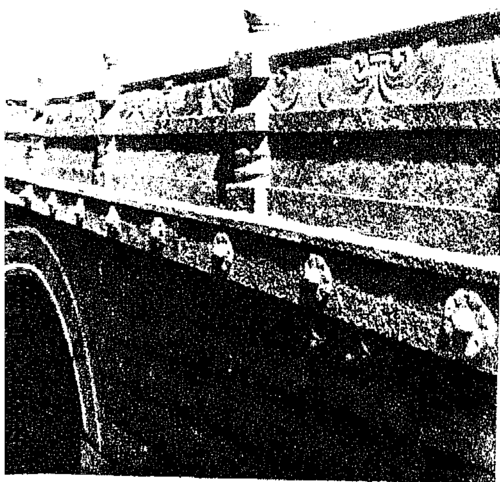


تمثال بوذا فى الكهف ــ ٢٠ من كهوف يونقان . . مدينة داتونغ . . مقاطعة شانشى



دن خمر فى أسرة سوى

جسر تشاو تشو الحجرى فى خبي . . أقدم الجسور فى العالم





دربزينات الجسر

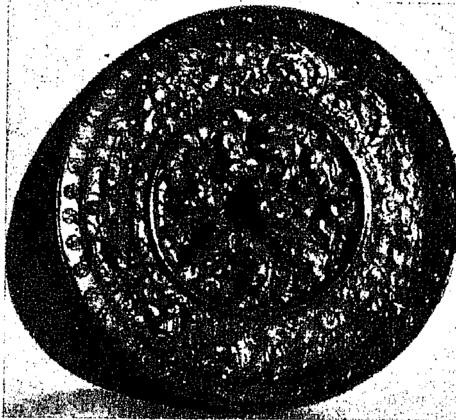


مشهد من جولة الامبراطور سوى يان دى التفقدية الى جنوب اليانغتسى

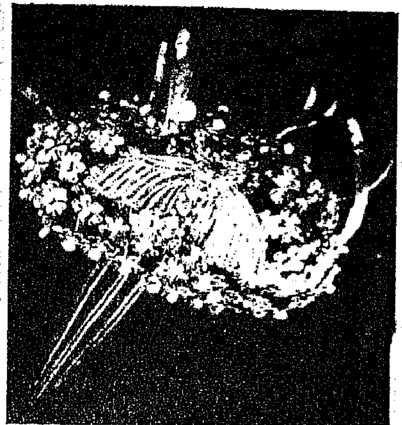
اسرة تانغ الملكية



صورة الامبراطور تاى تسونغ فى اسرة تانغ

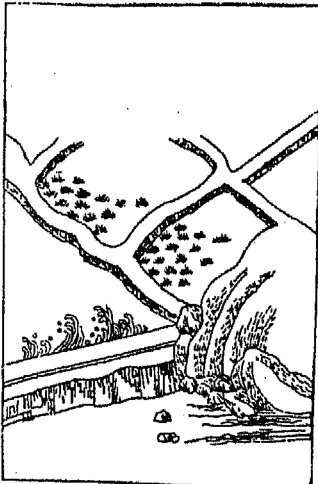


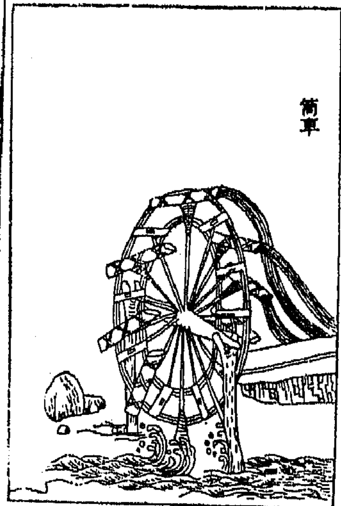
مرآة نحاسية فى أسرة تانغ



زينة ذهبية شائعة بين النساء فى أسرة تـــانـــغ . . من قبر قديم ـــ مدينة شيآن

اطباق فضية فيها عقاقير طبية فى قرية خحجيا ــ شيآن





ناعورة



قطعة من القماش الحريرى الابيض المخطوط . عثر عليها فى توربان — شينجيانغ



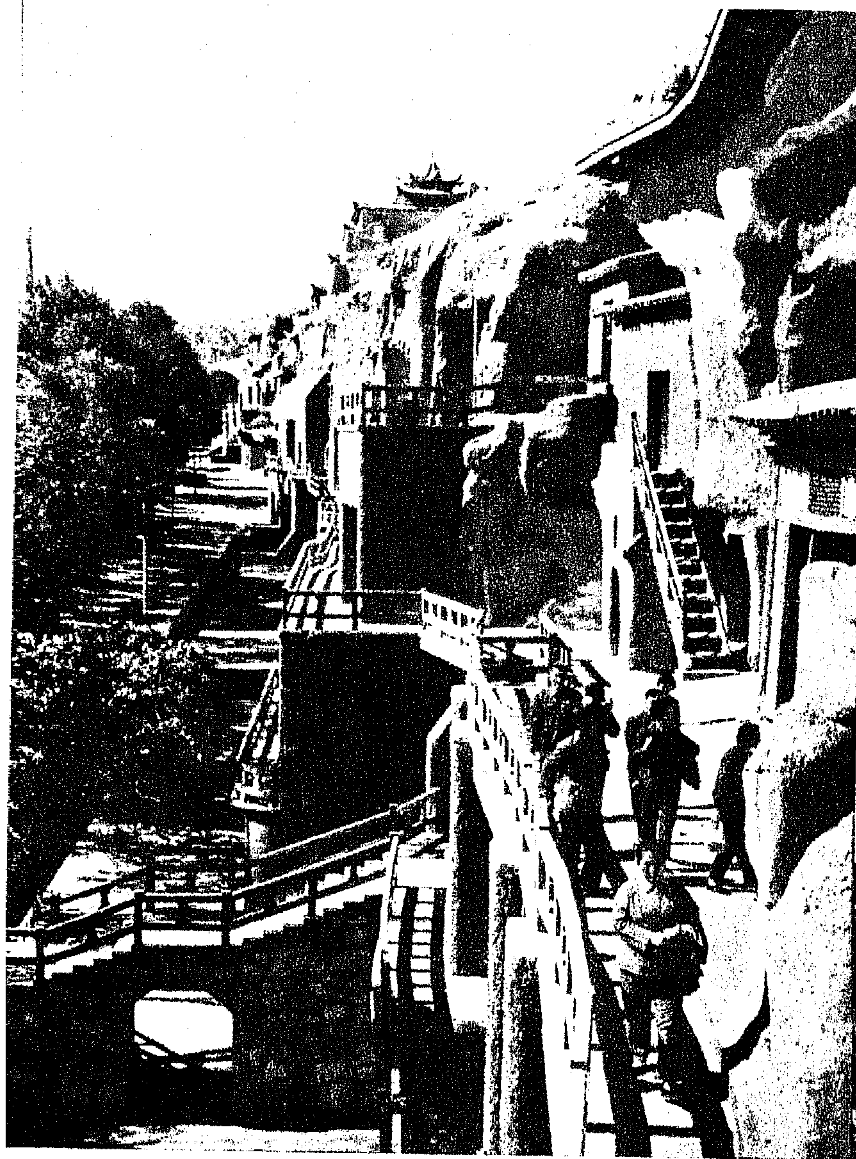
مرأة فى اسرة تانغ . . من لويانغ . .

منحوتات جدار

حصان ثلاثى الالوان فى اسرة تانغ



الصورة تظهر مشهدا من توجه الاميرة ون تشنغ الى التبت . . جدارية فى معبد داتشار فى لاسا بالتبت



منظر خارجي لكهوف مقار المرمة . . دونغهوا . . قانسو

صورة لى باى الشاعر العظيم فى اسرة تانغ



تشن اى تشن التقى المشهور
فى اسرة تانغ



سون سى مى الطبيب العظيم فى
اسرة تانغ



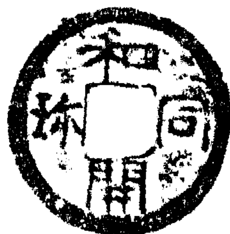
صورة دو فو الشا عر العظيم فى
اسرة تانغ

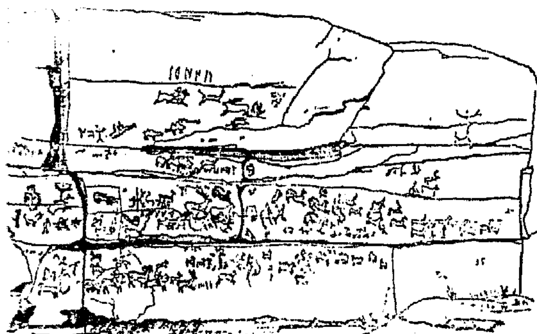







نقد ذهبى من روما الشرقية .. نقد فضى من بلاد الفرس .. نقد فضى من اليابان .. من مكتشفات شيآن





نسخ طبق الاصل للمنقوشات الحجرية .. اكتشفت فى شمال غربى الصين

احجار كتابية من كوريا



شهادة تعيين الضباط المسؤولين فى مناطق الحدود .. فى أسرة تانغ



برج دايان فى شيان ــ بنى فى سنة ٦٠٢ فى أسرة تانغ

بعنوان « فناء الروح » ، ضمنها افكاره – الالحاد . فيرى ان الجسد والروح كائن واحد . فعندما يفنى الجسد تفنى معه الروح . وقال ان سبب وجود الروح يعود الى ان الجسد حى ، وبدون الجسد لا تعيش الروح ، مما كشف اطماع الحكام الذين يخدعون الشعب باستخدام البوذية . فعبأ الامبراطور شياو تسى ليانغ حشدا من الرهبان والمثقفين لمساجلة فان تشين ، بيد انهم لم يستطيعوا هزيمته . وبعد ذلك أرسل الامبراطور واحدا من اتباعه الى فان تشين ليقول له : اذا تخلى عن رأيه فسيعينه الامبراطور مساعدا لرئيس الوزراء . فأجاب فان تشين ضاحكا : « لو كنت ابيع افكارى لقاء منصب رسمى لكنت قد تسلمت اعلى المراتب منذ زمن بعيد . » . وبعد ذلك جند الامبراطور وو دى من أسرة ليانغ اكثر من ٦٠ من النبلاء والحكام الذين كتبوا اكثر من سبعين مقالة لتفنيد آراء فان تشين الا ان فان تشين لم يهزم .

الخط والادب والفن

لدى أى ذكر للفنون يجب ان يذكر الخط اليدوى الذى تطور الى فن فى أواخر عهد أسرة هان الشرقية . بذل تشونغ يو (١٥٠ – ٢٣٠) جهودا جبارة فى تغيير اسلوب « ليشو » الى اسلوب «كايشو» الاسلوب المتوازن المنسجم بخطوط منتظمة ، وذلك فى عهد الممالك الثلاث . وفى أسرة جين الشرقية استمد وانغ شى تشى اروع ما لدى الخطاطين الآخرين وابدع اسلوبا خاصا به ، بعيدا عن تأثير « ليشو» ، ووصل الى قمة الاتقان . كما ان ابنه وانغ شيان تشى الذى اتبع خط ابيه منذ طفولته كان خطاطا يشار اليه بالبنان ، ويعرف الاب والابن على انهما « الوانغيان » .

وللرسم تاريخ عريق فى الصين . وقد ازداد عدد الرسامين فى عهد أسرة جين الشرقية كثيرا ، ويعتبر قو كاى تشى أشهر رسام فى تلك الحقبة . وثمة حكاية تدور حوله : عندما كان شابا تعهد بأن يجمع أموالا لبناء دير جديد . وظن كثيرون انه لا يجيد سوى الكلام الطنان ، ولا يستطيع تحقيق ذلك . فقضى شهرا يرسم مشهدا بوذيا على جدار فى الدير ، واقترح على الرهبان ان يطلبوا من الزائرين ان يقدموا هبات . فأغرى الرسم النابض بالحياة كثيرا من الزوار لمشاهدته . وسرعان ما جمع الدير المبلغ المطلوب . وانجز الرسام قو كاى

تشى اعمالا كثيرة ، ولكن لم يصلنا سوى نسخ لاثنين منها ، وهما « نصيحة المعلمات الى سيدات البلاط » و« ربة نهر لو» . وكل منهما يعتبر من كنوز فن الرسم القديم نظرا لما يشع منهما من حيوية وتناسق رائع فى تصوير الشخصيات المختلفة وبيئتها .

وفى عهد الاسر الجنوبية والشمالية ورث فن النحت تقاليد اسرتى تشين وهان ، واستمد مزايا الفن من الخارج ، خاصة من الهند . وعلى هذا الاساس ظهر الفن الكفهى الذى جمع النحت والرسم معا . كان الحكام وقتذاك يجبرون الشعب الكادح على حفر الكهوف الحجرية فى مناطق عديدة فى سبيل ترويج البوذية . وتعتبر كهوف يونقانغ فى مدينة داتونغ بمقاطعة شانشى اكبر مجموعة منها ، حيث تماثيل كثيرة مختلفة الاحجام لبوذا . وفى الكهف العشرين من هذه المجموعة تمثال ضخم ، ارتفاعه ١٣٫٧ م ، ووجهه ممتلىء وكتفاه عريضتان ، وهو عمل نموذجى فى كهوف يونقانغ . وفى بعض الكهوف حفرت على الجدران تماثيل ، وعلى سقوفها تماثيل للحوريات مختلفة الاشكال تطير وترقص فى الفضاء مثل السحب التى تسبح مع الريح او الاسماك فى المياه . ان كهوف لونقانغ كنوز لفن النحت الصينى القديم . وكذلك هى حال كهوف لونغمن فى مدينة لويانغ بمقاطعة خنان .

وفى مجال الادب كان تاو يوان مينغ شاعرا مشهورا استقال من منصبه كموظف صغير بسبب سخطه على المظالم السياسية فى عصره . فعاد الى بيته حيث عاش فى عزلة . وقد كتب كثيرا من الاشعار التى تصف المناظر والحياة الريفية . ووصف فى قصيدته « تاو هوا يوان جى » جنة خيالية ، يعيش فيها كل انسان معيشة رغيدة ، وذلك عكس مثله العليا وكراهيته للوضع الظالم الذى كان يعيش فيه .

وفى عهد الاسر الجنوبية والشمالية شهدت الاغانى الشعبية تطورا جديدا ، وخاصة ان الاغانى الشعبية فى شمال الصين عكست حياة القوميات المتبدية ومشاعرها ، وأسلوبها يمتاز بالقوة والبساطة الحيوية . ومن بين هذه الاغانى « انشودة تشيله » المتناغمة التى انتشرت فى ارجاء واسعة . وجاء فى الانشودة : تطل جبال ينشان على مروج تشيله ، قبة السماء مثل خيمة فوق مروجنا الواسعة ، واسعة هى السماء ، شاسعة هى البرارى ، تلفح الريح الكلأ ، فترى شياهنا ودوابنا . .

وثمة قصيدة وصلت الينا هى « مولان » التى تعتبر أفضل القصائد القصصية فى ذلك العهد . وتحكى قصة فتاة ، اسمها هوا مو لان ذهبت تؤدى الخدمة العسكرية بدلا من أبيها العجوز ، مما عكس بساطة وشجاعة وثبات النساء فى شمال الصين ، ولا تزال هذه القصة متداولة واسعة الانتشار الى اليوم .

اسرة سوى

فى عهد الاسر الجنوبية والشمالية (٤٢٠ - ٥٨٩) كان ابناء الشعب يتلهفون على توحيد الوطن . كما ان امتزاج القوميات فى شمال الصين وتطور الاقتصاد فى جنوبها وفرا شروطا لتحقيق التوحيد . وفى عام ٥٨١ استولى يانغ جيان (٥٤١ - ٦٠٤) الذى كان كبير الوزراء فى أسرة تشو الشمالية وكان من قومية هان على السلطة ، ونصب نفسه امبراطورا لأسرة سوى الجديدة ، واتخذ لنفسه ، كامبراطور ، اسم ون دى . وكانت عاصمة أسرة سوى فى تشانغآن . وفى عام ٥٨٩ شن الامبراطور ون دى حملة الى جنوب الصين واسقط أسرة تشن - الأسرة الأخيرة من الأسر الجنوبية ، مما انهى وضع تمزق الوطن الذى ظل يسود الصين خلال اكثر من ٢٧٠ سنة منذ أسرة جين الشرقية (٣١٧ - ٤٢٠) .

الاصلاحات وتطور الانتاج فى عهد الامبراطور ون دى

كان الامبراطور ون دى اداريا قديرا ، راجع انظمة العهود السالفة وسن انظمة جديدة ، سارت على نهجها الممالك التى جاءت من بعده . وكانت اعادة تنظيم العلاقات بين الحكومات المحلية والمركزية ومركزة السلطة فى الأخيرة من بين أهم الاصلاحات السياسية التى تحققت فى عهده . فقد الغى كثيرا من الدوائر الحكومية فى مملكة تشو الشمالية واعاد انشاء بعضها والتى ظلت موجودة اثناء عهد أسرة هان ومملكة وى فى فترة الممالك الثلاث . كما غير التقسيمات الادارية الدنيا الثلاثة الموجودة آنذاك الى اثنتين - المقاطعات والمحافظات . والجدير بالذكر ان الامبراطور بسط قانون العقوبات والغى ممارسات من مثل تقطيع الشخص اربا اربا بخمس عجلات تسير فى اتجاهات مختلفة . وبادر الى اصدار نظام اختيار الموظفين عن طريق الامتحان الامبراطورى ، وليس

بالتعيين حسب النسب . وكذلك واصل تنفيذ « نظام توزيع الأراضي» الذى ظل ينفذ منذ أسرة وى الشمالية ، ووزع بعض الأراضى « العامة » الامبراطورية والأراضى البور التى لا صاحب لها على الفلاحين الذين لا يملكون أرضا . وفى نفس الوقت خفف الضرائب واعمال السخرة . وخلال عشرين سنة فقط بعد قيام أسرة سوى توسعت رقعة الاراضى المزروعة توسعا هائلا ، وارتفعت المحصولات الزراعية ، وامتلأت الاهراء الامبراطورية فى تشانغآن ولويانغ بملايين البيكولات من الحبوب (البيكول : وحدة وزن صينية) . وكذا شهدت الحرف اليدوية تطورا ملحوظا ، وعلى الاخص صناعة بناء السفن ، فقد استطاعت الصين فى ذلك العهد صنع سفينة حربية ضخمة ذات ٥ طوابق تتسع ٨٠٠ فرد .

ولتعزيز المواصلات بين الشمال والجنوب أمر الامبراطور يانغ دى الذى جاء بعد الامبراطور ون دى بشق قناة على اساس ما تم شقه فى السابق ، بتسخير مليونين من الكادحين ، وذلك فى عام ٦٠٥ . وطول القناة ٢٠٠٠ كم ، تربط نهر هايخه والنهر الاصفر ونهر اليانغتسى ونهر تشيانتانغ ، ويمر بالمناطق الواسعة ، ومركزها لويانغ . لقد لعبت القناة دورا حيويا فى التبادل الاقتصادى بين الشمال والجنوب .

وفى ظل الحكم الموحد ازدادت الصلات بين وسط الصين ومناطقها الحدودية اقتصاديا . فقد ارسل الامبراطور يانغ دى رسله ثلاث مرات الى تايوان ، والى « المنطقة الغربية » المذكورة آنفا . كان فى تشانغآن ولويانغ كثير من التجار الاجانب الذين جاءوا من « المنطقة الغربية » ، ولاقوا حفاوة بالغة من سرأة سوى .

التطرف والمغالاة

توفى الامبراطور ون دى فى عام ٦٠٤ ، وخلفه فى الحكم ابنه الامبراطور يانغ دى (٥٦٩ — ٦١٨) الذى سيطرت عليه اوهام العظمة واصبح سئ السمعة لتطرفه . وقد بنى كثيرا من المشروعات الكبيرة باستخدام ما جمعت الأسرة فى عهد أبيه من الثروة المادية والبشرية . فقرر نقل العاصمة الى لويانغ الواقعة فى مقاطعة خنان الحالية ، وسخر مليونى عامل شهريا فى بناء المدينة وجلب الحجارة والاخشاب من مناطق بعيدة لبناء القصور والحدائق . وكانت الاخشاب

من الضخامة لدرجة ان نقل واحدة منها احتاج الى ٢٠٠٠ رجل ، والى مئات من أيام العمل لنقلها الى لويانغ .

وقد قام الامبراطور بثلاث رحلات ترفيهية على ظهر مركب تنيني بهيج فى القناة ، وكان فى حراسته آلاف المراكب التى امتدت خلفه مسافة ١٠٠ كم . كان على السكان على طول الطريق ان يقدموا الطعام لرجال هذا الاسطول .

انتهج الامبراطور يانغ دى سياسة التوسع الاقليمى ، فشن فى عام ٦١٢ هجوما على دولة كوريا المجاورة . بدأت الاستعدادات قبل الهجوم بعام ، واجبر مئات الالوف من الفلاحين المسخرين على استخدام قواربهم لنقل الاسلحة والتموين من خنان الى بكين فى الطريق الى الجبهة الشمالية ، وامتدت قواربهم فى صف يبلغ طوله ٥٠٠ كم على طول القناة . فمات خلق كثير وديست المحاصيل على جانبى الطريق . واجبر صناع السفن على العمل ليل نهار وقوفا فى المياه فى ميناء دونغلاى (فى محافظة ييشيان الحالية) على ساحل شاندونغ الشمالى . ومات ثلاثة من كل عشرة عمال نتيجة الارهاق . ولما ابتدأ الهجوم ضد كوريا أرسلت حكومة سوى مليونا من القوات برا وبحرا ، ولكن الهجوم انتهى بهزيمة منكرة . وفيما بعد ، حاول الامبراطور مهاجمة كوريا مرتين بلا فائدة .

ان طلب الحكومة المستمر للقوة العاملة والعسكرية اجبر آلافا مؤلفة من الفلاحين على هجر ديارهم مما تسبب فى اهمال مساحات واسعة من الأراضى ، واكره الناس على اكل لحاء الشجر وأوراقها واحيانا لحم البشر .

الانتفاضات الفلاحية

أثار الحكم التعسفى للامبراطور يانغ دى الكراهية فى قلوب الناس ، فنشبت فى عام ٦١١ انتفاضة فلاحية فى جبال تشانغباى جنوبى محافظة تسوبينغ الحالية شمالى شاندونغ . وألحق جيش الفلاحين الهزائم المتتالية بقوات أسرة سوى وازداد عدده الى عشرات الالوف .

حفزت ثورة شاندونغ الآخرين فى بقاع مختلفة من البلاد ، وعدة عشرات منها كانت على نطاق واسع . واستولى المتمردون على المدن والقرى ونفذوا حكم الاعدام فى المسؤولين الفاسدين ، وقمعوا النبلاء . ولقوا تأييدا حماسيا من الشعب . وعبر القتال ضد قوات حكومة سوى ، تجمعت جيوش الفلاحين تدريجيا وشكلت

عدة وحدات كبيرة ، أهمها جيش واقانغ بقيادة تشاى رانغ (؟ — ٦١٧) ، وجيش الانتفاضة فى خبى ومنطقة ما بين نهر اليانغتسى ونهر هوايخه .

نما جيش واقانغ من ثورة الفلاحين فى واقانغ شمالى مقاطعة خنان . لقد اعترضوا المراكب الامبراطورية للاستيلاء على الحبوب والحرير فيها كممتلكات لهم . انضم الى هذا الجيش لى مى (٥٨٢ — ٦١٨) . وفى عام ٦١٦ شن جيش واقانغ هجوما على ينغيانغ (تشنغتشو الحالية فى خنان) . فأرسل الامبراطور يانغ دى جنراله تشانغ شيو توه الى ينغيانغ ليقمع جيش واقانغ ، حيث وقع جيش أسرة سوى فى كمين ، فانهزم ، وقتل الجنرال تشانغ شيو توه . وفى العام التالى احتل جيش واقانغ هرى شينغلو الامبراطورى الكبير الحجم ، ووزعوا ما فيه على الفلاحين . ثم أبادوا عشرات الالوف من القوات الحكومية بالقرب من لويانغ ، واستولوا على كميات كبيرة من مواد التموين ، وتوسع الجيش سريعا الى بضعة مئات الالوف وسيطر على ولايات ومحافظات كثيرة فى المنطقة ما بين النهر الاصفر ونهر هوايخه ، واصدر بيانات منددة بغلو الامبراطور ووحشيته وأهاب بالناس للثورة عليه .

ولكن مع تطور جيش واقانغ ازدادت التناقضات فى داخله ، فقتل لى مى فى عام ٦١٧ قائد الجيش تشاى رانغ ، واغتصب سلطة الجيش . فقد الحق النزاع الداخلى بجيش الانتفاضة خسارة فادحة .

وفى عام ٦١٨ ، اغتيل الامبراطور يانغ دى فى يانغتشو على يد احد جنرالاته وبهذا كانت نهاية مملكة سوى التى استمرت ٣٧ سنة .

الثقافة والعلوم والتكنولوجيا

كانت ثقافة أسرة سوى مزيجا من المركزين الثقافيين الصينيين التقليديين فى ذلك الزمان ، وادى نهر اليانغتسى ووادى النهر الاصفر . وكان كل منهما يكمل الآخر ، مما هيأ ميلاد ثقافة أرقى مما كان فى الاسر الجنوبية والشمالية السابقة .

لقد اتقن بناة الجسور فى أسرة سوى تقنيتهم الى درجة تمكنوا معها من بناء جسر آنجى الشهير (جسر تشاوتشو الحالى) على نهر شياوخه على بعد ٢ كم من محافظة تشاوشيان غربى مقاطعة خبى . بنى هذا الجسر بين ٦٠٥ —

٦١٧ باشراف لى تشون العامل الفنى البارز مع مساعده لى تونغ وغيرهما ، وهو يتكون من قوس واحد فقط ، والمسافة بين دعامتيه ٣٧ر٣٧ م ، وطول الجسر الاجمالى ٨٢ر٥٠م ، وفى كل من الطرفين قوسان صغيران يمكن بهما تخفيض ثقل الجسر والقوة الضاغطة على الدعامتين وزيادة تصريف المياه واضعاف قوة السيول على الجسر فى الفيضان . ويبدو الجسر خفيفا ، متناسق الشكل . وعلى الجسر درابزينات جميلة حفرت عليها صور تنانين وحيوانات واشكال أخرى يمتاز أسلوبها بالقوة والبساطة ، ويعكس روعة فن النحت الحجرى فى عهد أسرة سوى . وقد مضت ١٣٠٠ سنة على بناء هذا الجسر الا انه ما زال قويا ، وخاصة انه صمد أمام الهزة الارضية التى حدثت عام ١٩٦٦ فى شينغتاى ، وكان مركز الهزة الأرضية قريبا من الجسر . هذا ويحتل الجسر مكانة عالية فى تاريخ بناء الجسور فى الصين وفى العالم بمستواه العالى فى الهندسة والفن .

وفقا للكتب والمعلومات التاريخية ، من الارجح ان فن الطباعة باللوحات المنقوشة ظهر فى عهد أسرة سوى .

وفى ميدان الادب حث الامبراطور ون دى عندما استولى على السلطة على كتابة الادب بأسلوب بسيط ومباشر مثل أهل الشمال ، فلذا انتجت هذه الفترة بعض الاشعار القوية والحيوية ، خاصة فى مناطق الحدود . ولكن معظم المثقفين فى هذه الحقبة تأثروا بأسلوب الاسر الجنوبية والشمالية ، كما ان الامبراطور يانغ دى دعا الى أسلوب بلاط ممالك ليانغ وتشن الجنوبية ، فساد اتجاه منمق ورمزى فى هذا العهد .

الاقتصاد الاجتماعى
فى عهد أسرة تانغ

أدت الانتفاضات الفلاحية فى أواخر عهد أسرة سوى الى انقلاب عسكرى فى تاييوان بشانشى قام به لى يوان (٥٦٦ م — ٦٣٥ م) ، احد كبار الموظفين فى حكومة أسرة سوى ، واستولى على تشانغآن ونصب نفسه عام ٦١٨ م امبراطورا حاملا لقب قاو تسو ومعلنا انشاء أسرة تانغ (٦١٨ م — ٩٠٧ م) . واعاد هذا الامبراطور الجديد بمساعدة ابنه لى شى مين (٥٩٩ م — ٦٤٩ م) حكم طبقة ملاك الاراضى على نطاق البلاد بأسرها ، وذلك بعد الانتهاء من قمع انتفاضات الفلاحين وتصفية السلطات المحلية .

بين الحاكم والمحكوم

سلم لى شى مين وهو من أشهر أباطرة الصين وحمل لقب الامبراطور تانغ تاى تسونغ ، عصا السلطة من أبيه فى عام ٦٢٦ م . وامتد حكمه ثلاثة وعشرين عاما من ٦٢٦ م — ٦٤٩ م .

حدث ظهور السلطة الحديثة تغيرات جذرية فى العلاقات اقتصاديا واجتماعيا فى المجتمع حينذاك ، اذ استرجع بعض الفلاحين أراضيهم التى استولى عليها أسر الاشراف والبيروقراطيون فى أسرة سوى السابقة . كما تحرروا من الضرائب الفاحشة واعمال السخرة التى فرضتها عليهم الدولة الاقطاعية . ورغم ازدياد عدد الفلاحين الذين تملكوا أرضا كان هناك عدد غير قليل منهم لم يملكوا أرضا ولم يكن أمامهم من سبيل للعيش الا أن يستأجروا الارض من ملاك الاراضى على أساس ان تكون المحاصيل مناصفة . أضف الى ذلك ، كان عليهم أن يقدموا مختلف الخدمات بلا مقابل لآجريهم . ولكن هؤلاء الذين كانوا مربوطين

كأقنان بحقول ملاك الاراضى فى عصور الأسر السالفة قد أصبحوا حينذاك فلاحين أحرارا ، اذ يمكنهم أن يخرجوا من مزارع أصحابهم عقب تسليم ضرائب الارض المطلوبة بحثا عما يتوقون اليه .

وظهر فى عهد تانغ تاى تسونغ عديد من المستشارين والوزراء قدموا مساهمات بارزة فى تدعيم حكمه ، ومن أبرز هولاء : وى تشنغ ، الذى كان وزيرا حصيفا فى أوائل سنى أسرة تانغ استفاد دائما الامبراطور تاى تسونغ مما اقترحه فى ادارة شؤون الدولة وتوطيد سلطتها . وعندما حلل وى تشنغ أسباب انهيار أسرة سوى السابقة قال : ان العلاقة بين الحاكم والمحكوم كالعلاقة بين القارب والماء فالقارب ظهر بسبب الماء ويغرق بسبب الماء أيضا . وتقدم الى الامبراطور بملاحظات جاء فيها انه يجب على الحكومة أن تتخذ سياسات معتدلة لا تتجاوز ما يستطيع الفلاحون أن يتحملوه ، وتجعل أعمال السخرة فى مواسم الفراغ من الزراعة . . وبالطبع ان الهدف الجوهرى من هذه السياسة هو تنمية اقتصاد طبقة ملاك الاراضى ورفع ايراداتها .

فى أوائل أسرة تانغ طبق الحكام قانون « المساواة فى الارض » و« ضرائب الزراعة » ، و« اعمال السخرة » الذى سن فى زمن أسرة وى الشمالية . ونص قانون « المساواة فى الارض » على توزيع الحقول بمئة مو على كل رجل ناهز ١٨ سنة من العمر ؛ ويتمتع الخلف بالحق فى توارث عشرين مو من كل مئة مو ؛ وأما الثمانون الباقية فتسترجعها الحكومة اذا مات صاحبها . وحدد قانون الضرائب الزراعية واعمال السخرة على أن يدفع كل رجل دانين من الحبوب (الدان : وحدة وزن صينية) و٧ أمتار من الحرير أو ٨ أمتار من القماش الى الحكومة سنويا ؛ ويؤدى علاوة على ذلك أعمال السخرة مدة عشرين يوما كل عام ؛ ويعفى من السخرة من يدفع بدلا حريريا أو قماشيا .

وعلى التقيض من ذلك ، يتمتع ملاك الاراضى بالحق فى الاحتفاظ بأراضيهم الاصلية ، وكذلك يمكن للارستقراطيين والبيروقراطيين أن يغتصبوا بناء على درجاتهم الأسرية مساحات هائلة من الاراضى كممتلكات ثابتة لهم ؛ مثلا ، كان نصيب كل أمير عشرة آلاف مو ؛ وأما كل موظف من الدرجة الاولى فحصته ستة آلاف مو . . كما يعفون من جميع الضرائب وأعمال السخرة .

ورغم هذه القوانين التى كانت تشبه أغلالا فرضتها الطبقة الحاكمة فى أسرة

تانغ على الفلاحين ، الا ان احوالهم قد شهدت بعض التحسن بالنسبة لما كانت عليه فى السابق الامر الذى رفع حماسة الفلاحين فى الانتاج .

تطور الانتاج الزراعى

حفزت قوانين أسرة تانغ الجديدة الفلاحين الى السعى وراء زيادة المحاصيل ، وقد ساعد على تطوير الانتاج ظهور النواعير والمحاريث التى تمتاز بقوس قصير وسكة متحركة .

واعطى حكام أسرة تانغ قسطا كبيرا من الاهتمام للانتاج الزراعى فانشئت مشروعات الرى بأعداد كبيرة ولا سيما فى مجارى النهر الاصفر ونهر اليانغتسى . وفى زمن الامبراطور قاو تسنغ ، تم حفر القناة الممتدة من مكان يسمى تونغتشو (داسو الحالية بشنشى) الى النهر الاصفر ، فارتوت منها الاراضى البالغة مساحتها أكثر من ٦٠٠ ألف مو ، وسقت القناة المحفورة فى يانغتشو بجيانغسو ٨٠ ألف مو ؛ وسقت ترع الرى التى اقيمت فى تاييوان بشانشى رقعات تغطى مئات الالوف من الموات ؛ وكذلك البرك التى حفرت فى شيوبه ببوتيان داخل حدود فوجيان حملت المياه الى حقول مساحتها ١٢٠ ألف مو . وفى نفس الوقت ، بدأت تدور عجلة مشروعات تطهير القنوات القديمة ...

لقد حول الفلاحون من خلال الصراع المرير ضد جبروت الطبيعة الذى استمر اكثر من مئة سنة الاراضى البور الشاسعة الى أراض خضراء معطاءة . وخلقت الشغيلة بدمائها وعرقها مقادير ضخمة من الثروات فحقق الاقتصاد الاقطاعى ازدهارا متصاعدا ، وحتى عام ٧٥٤م بلغ عدد السكان ٦٩٠ر٩ مليون عائلة . وقد ازداد بأكثر من ضعف عما كان عليه فى أوائل سنى أسرة تانغ . ولكن الطبقة الحاكمة كانت تجبى سنويا كثيرا من الحبوب والأقمشة والحرير من الكادحين فامتلأت المستودعات والأهراء الحكومية . مثلا كانت الاهراء فى هانجيا القريبة من لويانغ اكثر من أربعمائة واكبرها يتسع لخمسمائة طن من الحبوب ..

ارتبط تطور الاقتصاد الاقطاعى بتضخم نفوذ الارستقراطيين والبيروقراطيين وكبار ملاك الاراضى ، ومن خلال امتيازاتهم السياسية والاقتصادية تم لهم الاستئثار بمساحات طائلة من الاراضى الخصبة . وحين حلت أواسط عصور

أسرة تانغ ، أوشكت ألا ترى سوى مزارعهم وبساتينهم وديارهم الفخمة فى مناطق تحيط بتشانغآن ولويانغ . غير ان هذه الطبقة الطفيلية ما زالت غير راضية بما امتصته من الفلاحين ، بل صبت عليهم مختلف الجبايات الزائدة واعمال السخرة الأضافية . وأمام هذا الوضع الذى لا يطاق ، لجأ الكثير منهم الى الهجرة فازداد عدد الذين التحقوا بعد فقد أرضهم بصف الفلاحين المستأجرين فى مزارع ملاك الاراضى . وفى أواخر عهد أسرة تانغ ، وقعت أغلب الاراضى بيد حفنة ضئيلة من كبار الاغنياء ، حتى لم تجد الحكومة المركزية مجالا لتطبيق سياساتها الزراعية المرسومة . وضعت الحكومة المركزية لمعالجة المشكلة المالية قانونا حدد مبادىء جمع الضرائب بمقتضى مقادير الاراضى والممتلكات التى يملكهما دافعو الضرائب ، جرى جمع الضرائب مرتين كل سنة فحققت الدولة الاقطاعية ما تهدف اليه من رفع دخلها المالى ، بيد ان طبقة ملاك الاراضى كانت تتخذ كل السبل والوسائل لاحالة مما يجب عليها أن تحمله على كاهل الفلاحين .

الصناعة اليدوية

دخلت الصناعة اليدوية فى عهد أسرة تانغ مرحلة جديدة ظهرت فيها المعامل الكبيرة الاحجام التى تديرها الحكومة والتى تنتج ما يحتاجه بلاط الملك والامراء وموظفو الحكومة كما كان ثمة عدد كبير من الورش الصغيرة الخاصة التى تشمل قطاعات نسج الحرير وصناعة الورق والصباغة وصهر الحديد وسبك الأدوات المتعددة وما الى غير ذلك .

وبلغت فنون نسج الحرير حينذاك مستوى عاليا ، كانت ييتشو (تشنغدو الحالية بسيتشوان) ويانغتشو بجيانغسو مشهورتين بانتاج الحرائر المزركشة بالزهور . وعثرنا فى كهف «الألف بوذا» فى دونهوانغ على نوع من الحرير الشفاف المزخرف الوجهين فى عصر أسرة تانغ . واكتشف فى توربان بشينجيانغ اكثر من أربعين نسيجا حريريا ، من بينها فستان منسوج برياش الطيور المتعددة الاصناف ، ويمكنه ان يظهر أربعة ألوان مختلفة اذا نظرنا اليه من مختلف الزوايا أو تحت أشعة الشمس أو المصابيح .

وجدير بالذكر ان صناعة الخزف أحرزت تقدما ملحوظا أيضا ، كانت

شينغتشو (شينغتاى الحالية فى خبى) ويويهتشو (شاو شينغ الحالية فى تشجيانغ) ذائعتى الشهرة فى صنع الخزف . وامتاز خزف شينغتشو بلونه الحليبى ، وأما خزف يويهتشو فاشتهر بشفافيته . وأبدع الخزفيون فى أسرة تانغ طاقما كاملا من وسائل اخراج الخزف الثلاثى الألوان . وكانت عمليات الانتاج كما يأتى : طلاء لبن الخزف الأبيض بدهان شفاف ثم زركشة بالألوان الصفراء والزرقاء والخضراء ، ثم يصبح بعد عملية الحرق خزفا حاملا الألوان الزاهية .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر صناعة الورق . كان فى الصين عدد غير قليل من المدن والمناطق التى عرفت بانتاج الاوراق العالية الجودة ، وصلت أعداد الكتب التى الفتها المكتبة الرسمية فى لويانغ باستخدام أوراق ولاية ييتشو الكتانية ما ربا على ٢٥٠٠٠ مجلد . كما كانت هانغتشو وشيوانتشنغ (آنهوى) ويويهتشو (شاوشينغ الحالية بتشجيانغ) تحتلان مكانة هامة فى صناعة الورق .

المواصلات والملاحة

تطلب تطور الاقتصاد الاجتماعى أن تسايره خدمات المواصلات والملاحة . فقد ربطت خطوط المواصلات ما بين شتى أرجاء البلاد . وكانت تشانغآن مركزا لمواصلات البلاد قاطبة مؤديا الى ختان شرقا ، وقانسو غربا ، وسيتشوان فى الجنوب الغربى ، وهوبى جنوبا ، وشانشى وخبى شمالا . وبنى نزل على جانبى الطريق بين كل ١٥ كيلومترا تجهز فيه الخيول او القوارب التى خصصت لاستعمال الموظفين او المراسلين ؛ وتجاوز عددها ١٦٠٠ نزل ؛ كما اقيمت على الدروب العامة الفنادق التى تقدم للمارة كل التسهيلات . وكانت شبكات الملاحة من نهر اليانغتسى ونهر هوايخه والقناة العظيمة والبحيرات تربط بين مدن كثيرة .

وأما خطوط المواصلات البرية المتصلة بخارج الصين يومها فأدت الى كوريا شرقا ، والهند والبلدان العربية غربا من حوض تاريم وجبال البامير . وكانت الملاحة البحرية معتمدة على خطين : احدهما من يانغتشو بجيانغسو او من بنغلاى بشاندونغ الى كوريا واليابان ؛ والآخر من قوانغتشو عبر شبه جزيرة الملايو والهند الى الخليج ثم الى شرق افريقيا . كانت يانغتشو التى تقع عند ملتقى نهر اليانغتسى بالقناة الكبيرة مدينة تجارية مزدهرة . وكانت مدينة

قوانغتشو زاخرة بالزوار والتجار ورجال الدين القادمين من البلدان العربية وبلاد الفرس والهند حتى من بلدان جنوب شرقى آسيا . وأقامت الحكومة المركزية فى أسرة تانغ الهيئات الخاصة التى تدير شؤون الملاحة والتجارة الخارجية .

تشانغآن — عاصمة أسرة تانغ

كانت تشانغآن مركزا سياسيا فى ايام أسرة تانغ ومركزا للتبادل الاقتصادى والثقافى بين بلدان آسيا . وبلغ طولها من الشرق الى الغرب ٩ كيلومترات ، ومن الجنوب الى الشمال ٨ر٥ كيلومترات . وارتفعت فيها قصور الامبراطور ومبانى الدوائر الحكومية والأكاديمية التى كانت تقبل فقط أبناء الارستقراطيين والبيروقراطيين وملاك الأراضى .

وفصل شارع تشوتشيويه الفسيح جنوب المدينة الى جزئين شرقى وغربى انتشرت فيهما الدكاكين والمحال التجارية ، وكان فى الجزء الشرقى وحده عدة آلاف من الحوانيت التى احترفت بيع ٢٢٠ حرفة . وأنشئت الفنادق والمستودعات والمخازن حول أطراف المدينة .

زخرت تشانغآن بعد الانتهاء من حفر بحيرة قوانغيونتانغ الاصطناعية — مرسى السفن فى المدينة ، بالمنتوجات المحلية المتعددة التى نقلت اليها عن طريق نهر اليانغتسى ونهر هوايخه وروافدهما ، مثل المرايا النحاسية والمنتجات البحرية من يانغتشو فى جيانغسو : المنسوجات الحريرية من شاوشينغ فى تشجيانغ ؛ العاج واللؤلؤ وأخشاب الصندل من قوانغتشو فى قوانغدونغ ؛ الاوراق والاقلام من شيوانتشنغ بآنهوى ؛ مرارة الثعابين والمزمرد من قويلين بقوانغشى وما أشبه ذلك .

وينتصب برج دايان البالغ ٦٠ م شرقى شارع تشوتشيويه ، وظل مرتفعا حتى اليوم بصورة سليمة .

كان من بين أهل تشانغآن سكان من الأقليات القومية مثل التبتيين ، الاتراك ، الويغوريين ، خيتانيين ، دانتشاويين . وكثيرا ما زارها الاجانب من بلدان آسيا : كوريا ، بلاد الفرس والبلدان العربية . .

كانت السياسات الاصلاحية خاصة السياسة الزراعية التى اتخذتها أسرة تانغ قد خففت التناقضات الاجتماعية الموجودة فى الأسر السابقة تخفيفا فعالا فبلغ بفضل ذلك حكم أسرة تانغ اوج الازدهار الاقتصادى الذى استمر من تانغ تاى تسونغ حتى تانغ شيوان تسونغ (٦٨٥ — ٧٦٢) .

الاقليات القومية والعلاقات الخارجية فى أسرة تانغ

كانت البلاد الواقعة فى عهد أسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧ م) تمتد من المحيط الهادى شرقا الى بحيرة بلكاش غربا ومن جبال شينغآن شمال نهر هيلونغ فى الشمال الشرقى الى جزر بحر الصين الجنوبى جنوبا . ومن جهة ثانية امتدت يد التنمية الى مناطق الاقليات القومية فى مناطق الحدود النائية بعد توحيد الدويلات العديدة فتعززت اواصر العلاقات الحميمة والوثيقة فيما بين القوميات التى ساهمت فى تطور الوطن الأم اقتصاديا وثقافيا . هذا وقد ازدهرت كما لم يحصل فى اى وقت مضى علاقات اسرة تانغ بعديد من البلدان الاجنبية نتيجة سهولة المواصلات واستتباب حالة الأمن .

قبائل توتشيوى

لم تنقطع الصلات ولا الاتصالات أبدا بين داخل الصين واجزائها الغربية منذ فترة أسر الممالك الثلاث وجين الشرقية والغربية والممالك الجنوبية والشمالية من القرن الثالث الى السادس الميلادى . ففى تلك المناطق الغربية استقرت قبائل توتشيوى (قبائل تركية) على امتداد سفوح جبل آلتاى فى منتصف القرن السادس . وسيطرت على مساحات شاسعة ابتداء من جبل شينغآن شرقا الى بحر الخزر غربا ثم حدث الشقاق فيما بينها فانقسمت قسمين ، شرقى وغربى ، فى عهد اسرة سوى (٥٨١ – ٦١٨ م) .

تمرد الخان جلى زعيم توتشيوى الشرقية على اسرة تانغ الملكية وتوجه الى الجنوب بحشود حاشدة مهددا سلطتها الحاكمة ثم بعث تاى تسونغ لى جينغ (٥٩٤ – ٦٦٩ م) القائد العسكرى بمائة الف من الجند الهجوم على توتشيوى الشرقية

عام ٦٢٩ م (٥٩٩ - ٦٤٩ م) . فالحق بها ضربات قاتلة قرب ينشان ووقع الخان جلى أسيرا . ووجه امبراطور تانغ اوامره الى الوالى وعين احد زعماء توتشيوى مسئولا عن شئون القبائل ، ومن ثم اطلق اهل توتشيوى على الامبراطور تانغ تاى تسونغ لقب «الخان السماوى» .

حينذاك اوفد مبعوث من قبل الخان دونغيهو زعيم توتشيوى الغربية للاتصال بأسرة تانغ معترفا بقيادة حكومة تانغ المركزية . فمنحه الامبراطور منصبا رسميا .

وقعت مساحات شاسعة جنوب تيانشان الى هضبة البامير تحت سيطرة توتشيوى الغربية فى اوائل اسرة تانغ ثم اقامت هنالك حكومة تانغ ولاية ومقرا للوالى ، وبعد ذلك اقامت مركزا يتولى تهدئة المناطق الغربية فى بلدة قاوتشانغ (توربان ، حاليا) عام ٦٤٠ ، بغية ادارة تلك الاراضى .

تمرد الخان شابلوه زعيم توتشيوى الغربية على اسرة تانغ عام ٦٥١ واغار على المنطقة الغربية بجموع حاشدة ثم اوفد سو دينغ فانغ (٥٩٢ - ٦٦٧ م) القائد العسكرى من قبل امبراطور تانغ قاو تسونغ بحشود حاشدة لقمع المتمردين عام ٦٥٧ م وقد نجح فى اخضاعها .

عندما جلست امبراطورة تانغ - وو تسه تيان (٦٢٤ - ٧٠٥ م) على عرش الحكم اصدرت اوامرها بتعيين واليا فى ولاية تنغتشو (جمسار فى شينجيانغ ، حاليا) عام ٧٠٢ م والوالى مسئول عن ادارة المنطقة الشاسعة من شمال تيانشان ومن ضمنها جبل آلتاى وغرب بحيرة بلكاش ، وكان ذلك بغية توطيد نفوذها فى حدود شمال غربى الصين .

واما مركز تهدئة الغرب فهو مسئول عن ادارة الجيوش المرابطة فى البلدات الاربع التالية : قويتسى (كوتشار فى شينجيانغ ، حاليا) ؛ يويتيان (خوتان فى شينجيانغ ، حاليا) ؛ شوله (كاشى فى شينجيانغ ، حاليا) ؛ صوييه (قرب نهر تشوخه جنوب بحيرة بالكاش) . لذا اطلق المؤرخون عليها بلدات آنشى الاربع . اما بلدة صوييه فهى مكان هام فى اقصى الغرب يتمتع بموقع استراتيجى هام لعب دورا فى الدفاع عن حدود البلاد والمواصلات بين الشرق والغرب لذا كان الوالى يهتم شخصيا بأمور البلدة . كان تسين تسان الشاعر المعروف فى اسرة تانغ قد اشترك فى اعمال الادارة العسكرية شمال غربى الصين آنذاك ونظم كثيرا من القصائد وصف فيها جمال الطبيعة فى الحدود النائية .

وكان مقر الوالى فى كل من آنشى وبيتينغ قد لعب دورا كبيرا فى الدفاع عن الوطن الموحد وامن الحدود وتعزيز الصلات بينها وبين داخل البلاد . واضافة الى ذلك انشأت حكومة تانغ حقولا زراعية على امتداد جبل تيانشان بينما جلب الكادحون من قومية الهان اليها الوسائل الزراعية التى دفعت عجلة الانتاج الزراعى هنالك . وتدفق بعض افراد القوميات من المنطقة الغربية الى تشانغآن لدراسة العلوم والثقافة كما نقلت الكتب من داخل البلاد الى تشانغآن فأنشئت هنالك مدارس اشبه بالكتاتيب ، ورغم ذلك ارتحل المطربون والرسامون الى داخل البلاد ولقيت اعمالهم الفنية ترحيبا حارا لدى المواطنين فى داخل البلاد .

قبيلة هويخه

عاشت قبيلة هويخه على شواطئ نهر سهلنغ شمالا خاضعة لقبيلة توتشيوى الشرقية فى اوائل عهد اسرة تانغ ثم اتجهت الى الجنوب بعد انحلال توتشيوى الشرقية ومن ثم توثقت الصلات بينها وبين تانغ ثم نهض جولبلجا يوحد قبائلها بالقوة عام ٧٤٤ واستولى على منطقة شاسعة من غرب نهر هيلونغ شرقا الى جبل آلتاى غربا ثم منحته حكومة تانغ لقب « الخان العادل » . وبعد ذلك ارسل الخان رسالة الى الامبراطور عام ٧٨٨ طلب فيها استبدال اسم هويخو بدلا من هويخه . ثم هاجر معظم افراد هويخه الى منطقتى قانسو وشينجيانغ غرب الصين بعد انحلال سلطتهم فى منتصف القرن التاسع . وكثيرا ما ابتاع اهل هويخه الحرائر والشاى من تجار الهان مقابل الخيول والفرو كما اعجبوا بما ابدعه الشعراء الهانيون ، فكان كمال الشاعر من هويخه ينظم القصائد باللغة الهانية بينما استنسخ قصيدة بعنوان : « الشيخ الذى يبيع الفحم النباتى » نظمها باى جيوى يى الشاعر المعروف آنذاك من قومية الهان وقد قال فى قصيدته : « كانت امة الهان لنا قدوة حسنة منذ قديم الزمان » . ان كلماته هذه تعكس المشاعر العميقة بين قومية الهان وبين قوميات المنطقة الغربية .

موخه

عاشت قبائل موخه على شواطئ انهار هيلونغ وسونغهوا ووسولى فى مطلع القرن السابع وكانت تجرى وراء الكلأ والماء لرعى المواشى فى ايام الصيف

وتقضى ايام الشتاء فى بيوت محفورة فى الارض . ومع ذلك انقسمت الى قبائل عديدة منها هيشوى (الماء الاسود) وسو مو كلاهما قوى نسبيا ، انضم بعضها الى قبيلة الماء الاسود بعد منتصف القرن السابع والبعض الآخر الى قبيلة سومو .

انتشرت قبيلة الماء الاسود على ضفتى المجرى الاسفل انهر هيلونغ وقدمت لاسرة تانغ ضرائب وجبايات عام ٦٨١ ومن ثم تعززت العلاقات بين الطرفين ، حينذاك عينت حكومة تانغ زعيم قبيلة الماء الاسود واليا لاقليم بولى (ملتقى نهرى هيلونغ ووسولى) عام ٧٢٢ ، ثم اقامت مقر الوالى ومناصب مختلفة بالمنطقة التى استقرت بها قبيلة الماء الاسود وعينت زعيم القبيلة مسئولا عن ادارة مناطق متعددة . هذا وقد اقامت حكومة تانغ مجموعة من المؤسسات الادارية على وادى نهر هيلونغ مما عزز العلاقات بينهما .

انتشرت قبيلة سو مو جنوب قبيلة الماء الاسود وخضعت لحكومة تانغ منذ تأسيسها . وتوحدت بطونها العديدة على يد داتسو رونغ فى اواخر القرن السابع . وعين امبراطور تانغ شيوان تسونغ دا تسو رونغ واليا على اقليم هوخان وسلطانا لاقليم بوهاى عام ٧١٣ ، وعلى هذا النحو تأسست سلطة بوهاى الحاكمة بزعامة دا تسو رونغ ، آنذاك تحول اسم سو مو مو خه الى قبيلة « بوهاى» .

استقر فى اقليم بوهاى اكثر من مائة الف عائلة تعيش على زراعة الارز والفول والقمح والذرة كما مهرت فى نسج الاقمشة والحرائر وصناعة الخزف والخمور كما اوفد كثير منهم الى تشانغآن (شيآن ، حاليا) لدراسة الانظمة الحديثة والقديمة ثم رجعوا الى ديارهم ، وازدهر الاقتصاد والثقافة فى ذلك الوقت فى منطقة بوهاى ولم يكن ثمة فرق كبير بينها وبين داخل البلاد وكذلك نقلت الى داخل البلاد المنتجات المحلية مثل فرو السمور وجلد عجل البحر والنسور والجنسن والمسك والخيول والنحاس .

قبائل نانتشاو

عاش العديد من الاقليات القومية فى منطقة يوننان بجنوب الصين . وكانت الصلات بينها وبين اهل الهان وثيقة ومتينة كما اقامت الحكومات المتعاقبة فيها دوائر المحافظات والاقاليم منذ اسرة الهان الغربية .

انتشرت نانتشاو ، تضم ستة قبائل كبيرة اسمها « التشاوات الستة » ، على شواطئ بحيرة ارهاي شمال غربي يوننان ، وانحدر منها اسلاف قوميتي باي ويي حاليا . اما نانتشار فعاشت في اقصى الجنوب بعيدة عن سائر التشاوات الخمسة . وعين امبراطور تانغ شيوان تسونغ (٦٨٥ — ٧٦٢ م) بيلوك سلطانا لنانتشاو عام ٧٣٨ ثم سمح له ان يضم اليه غيره من التشاوات الخمسة . فبدأ بيلوك وابنه كولوفنغ يوحدان سائر القبائل حتى توسع وتوطد نفوذهما . حينذاك كان نظام العبودية سائدة في قبيلة نانتشاو وعمل العبيد في الحرث والزرع تحت اشراف اتباع الأمراء والموظفين والموالي كما نهب ثمار جهدهم وتجرع العبيد كؤوس الشقاء والبؤس والحرمان .

تأثرت قبيلة نانتشاو بالحضارة الهانية المتقدمة وتطورت تطورا عظيما في الاقتصاد والثقافة ، فنقل اهل نانتشاو فن الحرف اليدوية على يد الصناع من داخل البلاد حتى وصل مستوى منسوجاتهم الحريرية مستواها في منطقة سيتشوان كما احرزوا نجاحات باهرة في الفن المعماري ومثال ذلك الابراج الثلاثة في معبد تشونغشنغ التي بنيت قبل الف سنة بين جبل تسانغشان وبحيرة ارهاي لاتزال شاهدا حيا على ذلك .

توفان

تنحدر قومية التبت من قبيلة توفان التي عاشت على هضبة تشينغهاي التبت منذ ازمان بعيدة ترعى ابقار الياك والخيل والأيل . ولما استقرت اخذ ابناؤها يزرعون شعير تشينغكه والحنطة السوداء والقمح والفول ويشتغلون بحياكة الاقمشة والبسط . كانت الهضبة غنية بالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير لذا مهر اهل توفان في صناعة الاواني الذهبية والفضية والنحاسية والدروع وعتاد الحرب .

تولى سونغتسان جامبو سلطة الحكم على توفان في اوائل القرن السابع فاتخذ من لاسا مركزا سياسيا بعد توحيد القبائل واسس سلطة حكم قوية طبقت نظاما عبوديا . والى جانب ذلك ، كان محبا لثقافة تانغ فطلب مرارا من الامبراطور تانغ تاي تسونغ يد احدى الأميرات . فارسل الامبراطور الاميرة ون تشنغ اليه فتزوجها في توفان عام ٦٤١ . وقد نزل سونغتسان جالبو برجاله قرب بحيرة

بوهاى لاستقبال الأميرة واسكنها فى قصر على شكل بنايات تانغ ، وقد جلبت الاميرة الى توفان بذور الخضروات ومنتجات يدوية ومراجع عن الطب والصيدلة والمهن الحرفية . وبعد ذلك تدفق اليها الهانيون المهرة فى صناعة الشراب وحجر الرحى والورق والحبر وتربية دود القز وساهم سونغتسان جامبو والاميرة ون تشنغ مساهمات غير قليلة فى تعزيز العلاقات بين قوميتى الهان والتبت وتطوير الاقتصاد والثقافة فى توفان . وبعد ذلك ، توثقت بين الطرفين العلاقات الودية اكثر من ذى قبل فطلب ملك آخر فى توفان ، تشتسودتسان ، يد اميرة من الامبراطور تانغ تشونغ تسونغ فزوجه الامبراطور من الاميرة جين تشنغ ثم كتب رسالة الى الامبراطور يقول فيها : « تشارك توفان اسرة تانغ سقفا واحدا » . وتم التوقيع على معاهدة تحالف بين الطرفين عام ٨٢١ تنص على ما يأتى : « تتضامن أسرة تانغ وتوفان فى السراء والضراء ولا يجوز لأى من الطرفين ان يثير الفوضى والبغضاء ابدا . » كما رفع نصب تذكارى سمى « نصب الحلف » لايزال مقاما امام معبد زوغلاكنغ فى لاسا .

العلاقات بين اسرة تانغ وبين البلدان الآسيوية

تمتعت الصين فى اسرة تانغ بمكانة متقدمة ومزدهرة ثقافيا واقتصاديا كما كانت المواصلات والنقل اكثر تطورا من العصور السابقة فنشأت علاقات لاسابق لها من الزيارات المتبادلة بين تانغ وبين البلدان الآسيوية .

العلاقات بين اسرة تانغ وبين كوريا

توثقت العلاقات بين الصين وبين كوريا منذ ازمنة بعيدة وزادت اكثر فاكثر بينهما ايام اسرة تانغ . كانت دويلات ثلاث هى كولولى وبايكتشى وشيلا فى شبه جزيرة كوريا فى اوائل عهد اسرة تانغ وتدفق الى تشانغآن عاصمة تانغ المغنون من كولولى وبايكتشى ودون بعض الأغانى فى موسوعة تانغ الموسيقية . ثم بدأت شيلا توحد الدويلات بشبه الجزيرة فى اواخر القرن السابع . واوفدت كثيرا من ابنائها الى تشانغآن لدراسة شؤون الحكم والتاريخ والفسلفة والفلك والطب . وتعلم الصناع منهم اساليب ممتازة من الحرفيين الصينيين ومثال ذلك نسج الحرير المزركش ، وكذلك اعجب طلاب العلم من شيلا بما انتجه الشعراء

المعروفون فى اسرة تانغ .

وبالاضافة الى ذلك توثقت العلاقات التجارية بين تانغ وكوريا فاستوردت اسرة تانغ من كوريا البقر والخيل والكتان والقماش والورق والاقلام والحبر والمراوح اليدوية بينما صدر الى كوريا الحرير والشاى والخزف والادوية والكتب مما ادى الى تطوير الثقافة والاقتصاد بين الشعبين الصينى والكورى آنذاك .

العلاقات بين اسرة تانغ واليابان

نشأت العلاقات بين اليابان والصين منذ قديم الزمان . فقد أوفد مبعوث يابانى الى الصين فى اسرة هان (القرن الثالث ق . م - القرن الثالث م) ثم اعقبته وفود كثيرة ، وتوثقت العلاقة بين البلدين فى اسرة تانغ ، وتقول الوثائق : وفدت الى الصين ١٣ بعثة يابانية كل منها تضم ما بين ٥٠٠ - ٦٠٠ شخص ، من بينهم المبعوث الرسمى ومرافقوه والطلاب الذين يدرسون الفلسفة والتاريخ ونظام الحكم والادب والفن والفنون الانتاجية وغيرها . وقيل ان بعضهم قد اقام فى الصين اكثر من عشر سنوات بل منهم من اقام بها اربعين سنة .

وصل الى الصين ناكامار وللدراسة وتسمى باسم « تشاو هنغ » على عادة الصينيين ونظم قصائد ممتازة بالصينية لقيت الثناء والتقدير من الشاعر الفطحل لى باى والاديب المعروف وانغ وى آنذاك فتوطدت بينهم الصداقة . عندما اراد تشاو هنغ ان يعود الى وطنه نظم وانغ وى قصيدة للوداع عبر فيها عن الحزن والألم ثم اشيع ان السفينة التى اقلته قد غرقت فى البحر فتألم الشاعر لى باى ونظم قصيدة بعنوان : « رثاء الخل الوفى تشاو هنغ » عبر فيها ايضا عن المشاعر العميقة بين الشعبين الصينى واليابانى.

اثرت اسرة تانغ فى اليابان ثقافيا . فنشط المعلمون اليابانيون فى زرع بذور الثقافة التانغية بعد عودتهم الى الوطن فاصلحت اليابان نظام ادارتها على غرار ما حصل فى اسرة تانغ وحققت نظام المساواة فى الاراضى واستئجار الاراضى وكانت مدينة كيوتو اليابانية تشبه تماما تشانغآن عاصمة تانغ من حيث البناء المعمارى ، فيها « شارع شيوجياكو» « والسوق الشرقية » و« السوق الغربية » كما كان فى تشانغآن والجدير بالذكر ان العلماء وضعوا للأمة اليابانية لغة

مكتوبة ترجع الى مقاطع هانية ، ويحافظ اليابانيون حتى الآن على معالم تانغ فى المأكولات والمشروبات والملابس والحياة اليومية وما الى ذلك .

رحلة الراهب شيوان تسانغ الى الغرب

بدأت العلاقات الودية بين الشعب الصينى والشعوب فى شبه جزيرة الهند منذ سنين موغلة فى القدم فاوفدت الهند مرارا مبعوثين الى الصين فى عهد تانغ تاى تسونغ كما اوفدت اسرة تانغ مبعوثين الى الهند . ونقلت من الهند الى الصين علوم الطب والفلك والموسيقى وفنون الحرف اليدوية كما نقلت الى الهند من الصين صناعة الورق والكتب ، والى جانب ذلك ، ساهم الراهب شيوان تسانغ مساهمات كبرى فى دفع عجلة العلاقات الثقافية بين الصين وشبه القارة الهندية .

توجه الراهب شيوان تسانغ الى الهند منطلقا من تشانغآن لجلب الكتب البوذية فى اوائل حكم تانغ تاى تسونغ فوصل الى الهند بعد عبور شينجيانغ وهضبة البامير وتجول اثناء اقامته فى الهند فى المعابد ووصل الى نيبال مسقط رأس ساكيامونى مؤسس الدين البوذى وتعلم لهجات اهالى شبه الجزيرة وانهمك فى دراسة الكتب البوذية حتى اصبح عالما فذا فى الدين البوذى وقد عظمته ومجدته شعوب عديدة فى العالم . ثم رجع الراهب شيوان تسانغ الى تشانغآن حاملا ستمائة مؤلف من الكتب البوذية عام ٦٤٥ ، واتم ترجمة ١٣٠٠ مجلد منها فى عشرين سنة . ومن المعروف انه قد فقدت الكتب البوذية الاصلية فى الهند . فتحولت ترجمات البوذى تانغ الى كنز لدراسة حضارة الهند القديمة . ووضع شيوان تسانغ وتلاميذه كتابا بعنوان : « رحلة التانغى الى الغرب » وصفوا فيه احوال ١٣٠ دويلة فى الهند آنذاك من حيث الجغرافيا والثروات والمنتجات المحلية والعادات والتقاليد والدين والتاريخ . والكتاب مؤلف هام يبحث فى تواريخ الدويلات القديمة فى شبه الجزيرة الهندية . كما وضع بعض الادباء فى اسرتى يوان ومينغ قصصا اسطورية عن جلب البوذى تانغ الكتب البوذية ، منهم الاديب وو تشنغ ان (حوالى ١٥٠٠ — ١٥٨٢ م) الذى ألف قصة بعنوان : « الرحلة الى الغرب » التى انتشرت على كل لسان فى الصين .

العلاقات بين تانغ وبين غرب آسيا واوربا وافريقيا

شهدت العلاقات الودية تطورا عظيما بين تانغ وبين البلدان فى غرب آسيا

واوروبا وافريقيا اذ جاء المبعوثون الى الصين من بلاد فارس وبلاد العرب وبيزنطة . فقد ذكر احد الكتب التاريخية ان المبعوثين العرب جاءوا الى الصين اكثر من ثلاثين مرة من اوائل عهد تانغ قاو تسونغ الى اواخر عهد تانغ ده تسونغ (٧٤٢ – ٨٠٥ م) .

واحتشد فى بعض المدن ايام اسرة تانغ التجار والطلاب والصناع ورجال الدين وغيرهم من المسلمين الفرس والعرب حيث لقوا احتراما وتبجيلا من حكومة تانغ واقيم جامع للمسلمين فى مدينة قوانغتشو . كما كان الطلاب من البلدان المختلفة يدرسون فى تشانغآن وكذلك نقل الفنانون الموسيقى والرقص والالعاب البهلوانية الى الصين فى اسرة تانغ .

كانت حكومة تانغ تشجع التجار الأجانب على الاتجار فى الصين ولم تسمح أن تفرض عليهم مكوس باهظة . وكان بعض التجار الاجانب يأتون الى الصين للبيع وآخرون يستقرون فى الصين . واقام فى كل من مدينتى تشانغآن ويانغتشو آلاف من تجار الحراير والمجوهرات والدرر ، وآخرون انشأوا حوانيت صغيرة تبيع النبيذ والخبز المسمى « الخبز القومى » . وعثر على نقود فارسية فضية واخرى بيزنطية ذهبية وهى شواهد تاريخية ترمز الى السلام والمودة بين الشعب الصينى وبين الشعوب المختلفة فى غرب آسيا واوربا .

فى ذلك الوقت نقلت صناعة الحراير والمنتجات الخزفية وغيرها الى غرب آسيا واوربا عبر « طريق الحرير » وكذلك نقلت إلى افريقيا واوربا على يد العرب .

الثقافة فى أسرة تانغ

بلغت الحضارة فى عهد اسرة تانغ اوجها فى الصين فشهد الاقتصاد تطورا مضطردا وازداد التبادل الثقافى مع البلدان الأجنبية . واضافة الى ذلك ظهر علماء بارزون من القوميات المختلفة وعلى رأسها قومية الهان شادوا ثقافة راقية علىٰ اساس الثقافات الموروثة من الأسر الملكية السابقة منذ القرن الثالث .

العلوم

طبع كتاب « المحاورات الماسية » البوذى والتقاويم الفلكية ودواوين الشعر فى أسرة تانغ ، وكتاب « المحاورات الماسية » البوذى والذى يضم عدة مجلدات لازالت محفوظة منذ عام ٨٦٨ م ويعتبر من اقدم المطبوعات فى العالم . والمجلدات صفحاتها جميلة وخطوطها مسطرة منسقة وفن طباعتها وصل الى درجة عالية ، هذا وقد كان اختراع الطباعة على النحوت الخشبية تحولا عظيما فى حفظ المعارف والعلوم .

سنغ يى شينغ (٦٨٣ — ٧٢٧ م) عالم فى الفلك ، درس ما توصل اليه العلماء السالفون وما ساهموا به فى علم الفلك فنجح بالتعاون مع ليانغ لينغ تسان صانع المقاييس فى اختراع جهاز فلكى واستخدمه فى تحديد مواقع النجوم والكواكب فتوصل الى ما لم يتوصل اليه الاسلاف مما شجع العلماء على متابعة حركات الكواكب . ارسلت حكومة تانغ فى الفترة من ٧٢٤ م — ٧٢٥ م وبناء على اقتراح من سنغ يى شينغ ، العلماء الى ١٣ محطة للارصاد تنتشر فى طول البلاد كى يتمكنوا من تحديد موقع القطب الشمالى وطول خط الزوال الشمسى ، وكان من بينهم نان قونغ يويه عالم الفلك واصحابه الذين قدموا اهم النتائج التى توصلوا اليها فى مقاطعة خنان . اما سنغ يى شينغ ورجاله فتوصلوا الى ايجاد طول خط الزوال — اول مرة حدد فيها طول خط الزوال فى العالم — المرتبط بمعرفة حجم الكرة

الارضية .

وكذلك تطور الطب تطورا عظيما فى اسرة تانغ فانشئت مدرسة طب متعددة الاقسام حين تولى تانغ تاى تسونغ الحكم . ووضع العلماء كتاب « الاعشاب فى اسرة تانغ » حين تولى تانغ قاو تسونغ الحكم وهو اول موسوعة فى علم الصيدلة فى العالم . وبرز الاطباء فى اسرة تانغمثل وانغ شو لين الطاوى المذهب والطبيب يويآن يواندان قونغبو من قومية التبت وسون سى مياو الطبيب المشهور الذى وضع كتاب « الوصفات الطبية » .

ولد سون سى مياو (٥٨١ — ٦٨٢) فى هوايوان ، بلدة وفيرة بالاعشاب الطبية (محافظة ياوشيان مقاطعة شنشى ، حاليا) . كان يتسلق قمم الجبال لجمع الاعشاب الطبية واجتهد فى دراسة التجارب السابقة واتم تأليف كتاب « الوصفات الطبية » عام ٦٥٢ وسجل فيه ٨٠٠ صنف من الأدوية و٥٣٠٠ وصفة طبية . كما تعمق فى دراسة فعاليات الادوية على اساس معارف الاطباء السالفين عن الصيدلة فوجد ان نباتات شقائق النعمان والريزوم كوبتيديس ناجعة فى علاج الدوسنطاريا والاريقة فى علاج الديدان البطنية وكبريتيد الزئبقيك ورهج الغار نافعان وفعالان فى مقاومة السم . هذا وقد لقب سون سى مياو بلقب « ملك الصيدلة » .

الشعر والشعراء

شهدت اسرة تانغ اكثر المراحل ازدهارا فى ميدان الشعر ووصلنا من ذلك العهد خمسون الف قصيدة تعكس احوال الحياة فى ذلك المجتمع ويتصف كثير منها باسلوب فنى رائع ومضامين فكرية جيدة نسبيا ولازال شعبنا الى يومنا يردد كثيرا منها . ومن كبار الشعراء الذين برزوا فى هذا الميدان : لى باى ودو فو وباى جيوى يى وغيرهم .

لى باى (٧٠١ — ٧٦٢) ولد ببلدة سييه جنوب بحيرة بلكاش ثم نزح مع ابيه الى سيتشوان ، وعاش يوم كانت اسرة تانغ فى اوج ازدهارها . كان مولعا بالسياحة منطلقا من حب الوطن الوفير بالمناظر الطبيعية وترك آثار قدميه فى شتى انحاء البلاد ونظم قصائد يصف بها المناظر الطبيعية فى الوطن بحماسة دافقة وقدرات خيالية واساليب بليغة وكلمات حيوية . فلما وصف نهر اليانغتسى

انشد يقول :

« يتمايل شبح قارب فى سماء صافية ،
لم أر الا اليانغتسى يجرى نحو السماء . »

وعندما وصف هدير النهر الاصفر يتدفق الى ابعاد بعيدة قال :

« ألا ترى ان النهر الاصفر ينبع من السماء ،
ويتدفق الى المصب دون رجعة . »

كما نظم شعرا عن الشلال الطائر بجبل لوشان ، مقاطعة جيانغشى فقال :

« سيل عارم ينزل الى الف متر ،
كأن نهر المجرة يهبط من عليائه . »

ومن يقرأ قصائد لى باى التهبت فى نفسه المشاعر والعواطف حيال الجبال والانهار فى بلادنا . وتلك الأشعار لم يرددها الشعب الصينى وحده بل انتقلت الى كثير من البلدان الأجنبية .

دو فو (٧١٢ م — ٧٧٠ م) مولود فى محافظة قونغشيان ، مقاطعة خنان ، حاليا ، استقر فى تشانغآن عاصمة تانغ عشر سنوات ، ورأى بأم عينيه الظلم يسود جميع القطاعات فنظم كثيرا من القصائد يعكس فيها التناقضات الطبقية والحياة الواقعية آنذاك . وذات يوم شتوى عاد من تشانغآن الى البيت فلما دخل البوابة اخبرته زوجته بأن ابنه قد مات من الجوع فقفز الى ذهنه ما رآه اثناء مروره بجبل ليشان حيث رأى الامبراطور تانغ شيوان تسونغ يشارك وزراءه فى معاقرة الخمر ومداعبة النساء فارتسم على وجهه الامتعاض والتهبت فى كبده نار الحقد والغضب . وفى الحال نظم قصيدة ترددت على الألسن من جيل الى جيل منها :

« خم اللحم وفسد الخمر فى القصر الوثير
والناس تموت وعلى الدرب من برد وجوع »

كان صاحبنا يتنقل من مكان الى آخر أثناء فتنة آن — شى فنظم قصيدة منها :

« هلك الوطن ،
وليس سوى الجبال والانهار ،
وارتفعت فى المدن الاعشاب . »

معبرا بذلك عن الغضب والحقد . دفعت تلك الفتنة الشاعر الى نظم قصائد تفضح الطبقة الحاكمة الاقطاعية التى فرضت على الشعب استغلالا واضطهادا ، وكانت قصائده تتميز بالرصانة والرزانة والعواطف الجياشة الدقيقة والمشاعر المكبوتة كما تعكس مرحلة تاريخية معقدة واوضاعا فوضوية فاطلق عليها الناس القصائد التاريخية .

باى جيوى يى (٧٧٢ م – ٨٤٦م) عاش فى مرحلة تفسخ اسرة تانغ وشدة تفاقم التناقضات الطبقية . استخدم الشاعر قصائده فى نقد ودحض الساسة الظالمين وفضح جرائم الطبقة الحاكمة كما عبر بها عن آلام الشعب . فقد نظم قصيدة تعبر عن اوضاع النبلاء والاغنياء بعد اشتراكهم فى وليمة فقال :

« اطمأن القلب بعد الشبع
غلت الحماسة بعد شرب الخمر . »

ولكن الشعب الكادح كان يرزح فى بؤس وشقاء فقال :

« اصاب الجفاف والقحط جنوب نهر اليانغتسى ،
واكل الانسان الانسان فى محافظة تشيوى . »

ونظم قصيدة بعنوان : « البساط الاحمر » وصف فيها المسئول عن مدينة شيوانتشنغ بأنه كان يفرض سنويا على اهل المدينة ان ينسجوا بسطا من الحرير هدية للامبراطور ، فقال :

« الا تعرف ايها المسئول عن مدينة شيوانتشنغ ،
قطعة البساط تحتاج الى عشرات كيلوغرامات من الحرير ،
والانسان لا الارض يحتاج الدفء ،
لاتختطف الملابس من الرعايا ولا تلبس الارض . »

ان قصائد باى جيوى يى سهلة الفهم وقيل انه عندما كان يكمل قصيدة قرأها امام بعض العجائز ليعرف هل يفهم كلامه املا ، ثم يضيف عليها تغييرات حتى يسهل فهمها لذا انتشرت قصائده بين اوساط الشعب على نطاق واسع .

الفنون

برزغ فى عهد اسرة تانغ عديد من الرسامين اشهرهم يان لى بن فى اوائل اسرة تانغ ووو داو تسى فى منتصف عهد اسرة تانغ ، وكل منهما أثر فنيا على الاجيال

اللاحقة .

يان لى بن ماهر فى رسم صور الاشخاص وتتميز رسومه بالوضوح والقوة . وقد اكمل لوحة الامبراطور تانغ تاى تسونغ جالسا على عربة فى استقبال رسول سونغتسان جامبو الذى طلب يد بنت الامبراطور . (اللوحة محفوظة فى قصر الامبراطور ببكين) .

كان وو داو تسى مولعا بفن الرسم منذ صغره ولوحاته مجسمة ، وكلما اكمل لوحة لشخص استخدم الالوان الحمراء فى التعبير عن الاضلاع المفتولة شأنها شأن التمثال وقد ابدع ٣٠٠ لوحة جدارية فى المعابد القائمة فى تشانغآن ولويانغ . وملامح الاشخاص فيها يختلف بعضها عن بعض والصور تبدو حقيقية وكأنما تهفهف عليها الاوشحة امام النسيم العليل فاطلق الناس عليه لقب : « النبى الرسام » .

ان الكهوف الحجرية منجزات فنية رائعة فى بلادنا وخاصة كهوف موقاو ، دونهوانغ بمقاطعة قانسو . فقد حفر الناس اكثر من الف كهف جنوب شرقى دونهوانغ على امتداد جبل مينغشا ولم يبق منها الا ٤٨٠ كهفا تم تشييد معظمها فى عهود اسرتى سوى وتانغ . اما كهوف موقاو فلقبها الآخر كهوف الالف تمثال بوذى ، بعضها يعلو بارتفاع ٣٣ مترا ، وقد شيدت عمارة شامخة تغطى الكهوف من خارجها من اجل الحفاظ على تلك الفنون القديمة . وعلى جدران الكهوف رسوم ملونة تحاكى المناظر الطبيعية من الحقول المزروعة والحصاد الوافر وتربية المواشى والرقص والغناء والصور لزعماء القوميات المختلفة . وهذه الصور تعكس احوال الاقتصاد المزدهر فى عهد اسرة تانغ وحياة الترف والفساد التى عاشتها الطبقة الحاكمة ، وكذلك الجهد الجهيد الذى بذله الكادحون آنذاك . فاذا قدرت الجداريات فى كهوف موقاو بصفحات يعلو كل منها خمسة امتار والحقت واحدة باخرى بلغ طولها الاجمالى ٢٥ كيلومترا وهى بحق اكبر مستودع فنى فى العالم اظهر مقدرة وحكمة الكادحين الصينيين .

انتفاضات الفلاحين
فى أسرة تانغ وتدهورها

اصاب اسرة تانغ المزدهرة التدهور حين تولى تانغ شيوان تسونغ (٦٨٥ — ٧٦٢) الحكم الذى عين كبار القواد مسئولين عن ادارة المناطق الهامة بحدود البلاد عسكريا واقتصاديا ، فى اوائل توليه الحكم . وكان آن لو شان الذى حظى بمكانة عالية لدى شيوان تسونغ القائد المسئول عن منطقة خبى ، شانشى ، لياونينغ قد رأى المناطق الداخلية خالية من قوات الجيش والامبراطور تانغ شيوان تسونغ غارق فى منادمة الخمر والنسوة وخاصة حظيته الحسناء يانغ قوى فى ، ويعتمد على موظف فاسد هو شقيق الحسناء يانغ لمعالجة شئون الدولة مما عطل ادارة الحكم ونشر الفساد فى ارجاء البلاد ، لذا ، اراد آن لو شان ان يغتنم الفرصة لاختطاف الحكم من يدى امبراطور تانغ .

فتنة آن — شى

حشد آن لو شان الحشود فى فانيانغ (بكين ، حاليا) عام ٧٥٥ م ، واثار الفتنة ، واقترف الجيش جرائم سفك الدماء والحرائق والنهب فى الطريق الى مدينتى لويانغ وتشانغآن وانتهوا الى السيطرة على المدينتين فالتهبت نار الحقد والغضب فى نفوس الشعب ، واثناء الهروب الى سيتشوان قتل الجنود يانغ قوه تشونغ شقيق يانغ قوى فى حظية الامبراطور ، واجبروا الامبراطور على قتلها . ثم استعاد جنود تانغ تشانغآن ولويانغ بمساعدة قبيلة هويخه وبعد ذلك جاء شى سى مينغ احد اصحاب آن لو شان بدوره يوقد شعلة الفتنة تمردا على اسرة تانغ . وانتهى الأمر الى قمع المتمردين عام ٧٦٣ م . واستغرقت الحرب

ثمانية اعوام واطلق المؤرخون على تلك المأساة فتنة آن – شى .

سببت فتنة آن – شى المآسى للشعب والحقت بالانتاج الزراعى خسارة كبرى حتى نزح الشعب متشردا فى كل مكان وكادت المحافظات على بعد مئات الكيلومترات من مدينة لويانغ تتحول الى انقاض . ثم بدت اسرة تانغ ضعيفة منهوكة القوى ومع ذلك سنح لسائر القواد فرصة توسيع نطاق نفوذهم ، وتجنيد الصغار وكان غير قليل من القواد مع اسرة تانغ فى الظاهر مبتعدين عنها فى الباطن لم يقدموا الجبايا للحكومة المركزية بل شغلوا المناصب الرسمية بمعرفتهم . وعندما كان يوافى القائد اجله يرث ابنه بدوره الحكم ، كل هذا والامبراطور عاجز عن التدخل فى شؤونه . وعلى هذا النحو ظهر عزل كبار القواد عن القيادة .

انتفاضات الفلاحين

نهب بلاط الحاكم والاستقراطيون وكبار الموظفين وملاك الاراضى ما امتلك الفلاحون الفقراء من الاراضى فتشرد الفلاحون فى كل مكان وكانت الضرائب باهظة فاحشة الى درجة انه كان على الفلاحين الفقراء ان يدفعوا ضرائب الملح والشاى والخمر والخل اضافة الى ضريبة النباتات الخضراء وان لم يحصلوا منها على حبة واحدة .

فقد الفلاحون صبرهم ولم يعودوا قادرين على تحمل الاستغلال الفاحش فنهض عدة آلاف منهم فى مقاطعتى خنان وشاندونغ يرفعون راية الانتفاضة فى تشانغيوان ، مقاطعة خنان ، بقيادة زعيمهم وانغ شيان تشى وشكلوا جيشا جديدا . اصدر جيش الانتفاضة بيانا يندد فيه بفساد الموظفين التانغيين والضرائب الباهظة والعقوبات القاسية . وفى السنة التالية ، نهض عدة آلاف من الفلاحين بقيادة هوانغ تشاو فى شمال محافظة تساوشيان ، مقاطعة شاندونغ استجابة لدعوة اخوانهم الفلاحين فاستولوا على الألوية والمحافظات فالتقت الفئتان من الفلاحين المدججين كسيل عارم متنقلة من شاندونغ الى خنان وآنهوى وهوبى والحقت بقوات تانغ والموظفين الفاسدين وملاك الاراضى ضربات مبرحة وصادرت اموالهم وممتلكاتهم ووزعتها على الفقراء . تسابق الفلاحون الى جيش الانتفاضة ثم قتل زعيمهم وانغ شيان تشى فى احدى المعارك ولكن جيش الفلاحين واصل القتال بقيادة الزعيم هوانغ تشاو .

كانت قوات تانغ والقواد قد تركزت فى الشمال وقلت فى الجنوب . واتبع جيش الفلاحين سياسة واقعية ، تجنب مهاجمة النقاط القوية وهاجم النقاط الضعيفة ، فتوجه الى جنوب نهر اليانغتسى مئات الألوف من المحاربين عام ٨٧٨ م واستولوا على الألوية والمحافظات فى مقاطعات جيانغشى ، آنهوى ، تشجيانغ قاطعين مسافة اربعمائة كيلومتر فى شهر واحد وانتقلوا من تشجيانغ الى فوجيان بسرعة بالغة واستولوا على مدينة فوتشو الساحلية حاضرة فوجيان ، وفى العام التالى استولوا على قوانغتشو ، مقاطعة قوانغدونغ .

ثم انتقل جيش الانتفاضة الى مقاطعات هوبى ، جيانغشى ، تشجيانغ ، آنهوى ، وتجاوز الخط الدفاعى لقوات تانغ على امتداد نهر اليانغتسى وعبر نهر هوايخه ولم يأخذ شيئا من ممتلكات الشعب اثناء الزحف الى الامام فلقى ترحيبا حارا من الشعب وتطور بسرعة حتى اصبح قوة لها شأنها عددها ستمائة الف . ثم استولى جيش الانتفاضة على مدينة لويانغ فى نوفمبر عام ٨٨٠ م وتبعه اختراق مانع تونغقوان الطبيعى . ولما اقترب الجيش من العاصمة تشانغآن هرب الامبراطور تانغ شى تسونغ الى مقاطعة سيتشوان . دخل افراد جيش الانتفاضة تشانغآن فى ديسمبر وعلى رؤوسهم شالات حمراء متدرعين وشاهرين الاسلحة . وكان اهل تشانغآن يقفون على جانبى الطرق معهم شياههم واللبن يقدمونها لافراد جيش الفلاحين . وقال جيش الفلاحين لسكان تشانغآن : « تمرد الزعيم هوانغ تشاو من اجل الشعب ، وتصرفاته تختلف عن تصرفات الامبراطور تانغ . اطمئنوا فى عيشكم واعمالكم . » وكان جيش الانتفاضة يوزع الاموال والمؤن على الفقراء فعمت الفرحة والبهجة العاصمة ، تشانغآن .

تأسيس سلطة الفلاحين

انشأ جيش الانتفاضة سلطة الحكم فى العاصمة تشانغآن واطلق عليها اسم دولة تشى الكبرى ، وعين الكادحون فى المناصب المختلفة وبدأوا عمليات قمع الارستقراطيين وكبار الموظفين التانغيين وابادة الأسرة الامبراطورية والفتك برجال البلاط الذين لم يستطيعوا الخروج من تشانغآن ، وصودرت كذلك ثروات الاغنياء ووزعت على الفقراء ، وعلى هذا النحو وجهت سلطة الحكم للفلاحين ضربات شديدة الى طبقة ملاك الاراضى فى انحاء البلاد وجعلت النظام الاجتماعى

ينقلب رأسا على عقب .

وبعد ما تأسست سلطة الحكم لم يواصل جيش الفلاحين مطاردة قوات تانغ مغتنما فرصة الانتصار مما اتاح للأخيرة فرصة التقاط انفاسها فحشد الحكام وملاك الاراضي قواتهم المتبقية وشنوا هجوما على جيش الفلاحين . فلما ضربت قوات تانغ حصارا على مدينة تشانغآن كان جيش الانتفاضة ينقصه العون والمئونة فاستسلم لقوات تانغ تشو ون القائد المسئول عن منطقة شرقي تشانغآن فانسحب جيش الانتفاضة من تشانغآن عام ٨٨٣ ومنى زعيم الفلاحين بهزيمة فى جبل تايشان ، شاندونغ ، ثم واصلت بقايا جيش الانتفاضة القتال وهكذا لحق الفشل بانتفاضة الفلاحين التى استغرقت عشر سنوات قطعت خلالها عشرات الوف الكيلومترات واكتسحت أطرافا عديدة فى الصين .

الناشر : دار مجلة " بناء الصين " (بكين)

الموزع : الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب (كوزى شوديان)

ص ٠ ب ٣٩٩ بكين ، الصين

طبع في مطبعة اللغات الاجنبية

الطبعة الاولى : عام ١٩٨٦

«长城丛书»

中国古代史（上）

中国建设杂志社出版（北京）

中国国际图书贸易总公司发行

新华印刷厂　外文印刷厂印刷

1986年第一版

00432

编号：（阿）17—A—1978PA

